الفصل الثالث

على نجاد الاستقرار وفي وهاد الانتشار

أردتُ أن أتحدّث في هذا الفصل عن الصعاليك أو الذؤبان عندَ قبيلة هُذيْل، فقد كانت هذه القبيلةُ مشهورةً بكثرة صعاليكها وذؤبانها، وإذا كان بعضُ الهُذَليين قد عرفَ الاستقرارَ وسكنَ القُرَى والجبال، فإن أغلبَهم كانوا بادين يتنَّقلون بين أفناء البادية طلباً للماء والكلأ والمرعى، وكان هناك أيضاً طائفةُ الصعاليك الذين لم يستقروا في مكانٍ بل توزَّعوا في شتَّى البقاع لا سيما في البادية هنا وهناك، يبحثون عن أرزاقهم بالغزو والإغارة للسَّلْب والنَّهْب، فكانوا يعتمدون على أنفسهم في جَلْبِ هذه الأرزاق، وكان يجَمَعُهم إحساسٌ واحدٌ هو أنهم مظلومون في حياتهم وفي مجتمعهم،وكانت رسالَتُهم هي دفعُ ذلك الظُّلْمِ عن طريق القوة.

والحقُّ أن البيئةَ كانت قاسيةً عليهم جداً فكانوا فقراء، وربما كانوا يجدون مشقَّةً بالغةً في سبيلِ الحصول على أرزاقِهم وأقواتهم، في الوقتِ الذي كانوا يرون فيه ناساً منعمين، يملكون المالَ والآبالَ، ويعيشون ألواناً من الحياة المترفة.

والمُهمّ أن نلاحظَ كثرةَ الصعاليك عند هذه القبيلة، وقد ذكر الأصمعيُّ أنَّ في هُذَيل أربعين شاعراً مُفْلقاً، وكلّهم يعدُو على رجله ليس فيهم فارس[1]، وقال يونس ابن حبيب: ليس في هُذَيْل إلا شاعرٌ أو رامٍ أو شديدُ العدوِ[2].

والحقّ أن ظاهرةَ التصعلك قد تفشَّتْ عندَهم بشكلٍ قوي حتى إننا نرى في حياة الوادعين كثيراً من مغامرات الذؤبان، مما يحمل على الظنِّ أنهم كانوا يحيون حياتَهم في بعض الأوقات[3].

ولا بأس أنْ نتكلَّم أولاً عن الصعاليك في العصر الجاهلي في مقدمةٍ لا مفرَّ منها للدخول إلى الموضوع الأساسي وهو صعاليك هُذَيْل.

---

(١) فحولة الشعراء للأصمعي ص٣٧.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ١ / ١٧٤.

(٣) شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص٢٥١.

كانت طائفةُ الصعاليكِ في المجتمع الجاهلي مرتبطةً بالظُّروف والبيئة التي نزلت فيها القبائلُ العربية، فقد كانت تلك البيئة غيرَ متساويةٍ ولا متشابهة في خِصْبها وجَدْبها، وغناها وفَقْرها، بل كانت مختلفةً في ذلك اختلافاً واضحاً بحيث إن الثروة لم تكن موزعةً توزيعاً عادلاً على القبائل في المدن والقرى،مما أدى إلى وجود طبقتين مختلفتين:طبقة الأغنياء من أصحاب الأموال الغزيرة والآبال الكثيرة، وطبقة الفقراء المُعْوزين الذين كانت حياتهم مكونةً من الشقاء والعناء، فهذا التناقض كان ظاهراً عندهم بشكل واضح.

والصعاليك هم جماعة فقراء من قبائل شتَّى ، جمعت بينهم الخَصاصَةُ والحاجةُ والإعوازُ للمالِ الذي كان عند غيرهم، فخرجوا على قبائلهم[1] وتحلَّلوا من نُظُمها، وأخذوا أنفسَهم بالإغارة والنَّهْب والسَّلْب، حيث كانوا يغيرون على القبائل والأفراد ثم يوزِّعون المالَ فيما بينهم.

والصعلوك في اللغة هو الفقير الذي لا يملك من المال ما يعينه على تحمل أعباء الحياة، ولكن هذه اللفظة لم تقف في الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة، ولكنها أخذتْ تدلُّ على من يَتَجَرَّدُون للغاراتِ وقطعِ الطُّرُق، ففي تاج العروس : "وذؤبان العرب : لصوصهم وصعاليكهم وشُطَّارهم الذين يتلصَّصُون ويتصعلكون لأنهم كالذئاب وهو مجاز"[2].

وكانوا رجالاً يمتازون بالشجاعة، والصَّبر على الشدائد، وسرعة العدوِ، حتَّى لقد سُمُّوا بالعدائين، وتُضْرَبُ الأمثالُ بهم في شدة العدْوِ، وتروى لهم أقاصيص كثيرة في هذا المجال.

ومن ذلك ما يقال عن تأبط شرّاً ـ وهو من قبيلة فَهْم ـ من أنَّه " كان أعدَى ذي رِجْلَيْن وذي ساقَيْن وذي عَيْنَيْن، وكان إذا جاع لم تقمْ لَه قائمةٌ، فكان ينظر إلى الظباءِ فينتقي على نظره أسمَنها، ثم يجري خلفَه، فلا يفوته حتى يأخذَه فيذبَحه بسيفه، ثم يشويه فيأكله"[3].

---

(١) تاريخ الشعر السياسي للأستاذ أحمد الشايب ص٤١ .

(٢) تاج العروس للزبيدي مادة « ذأب » .

(٣) الأغاني ٢١ /١٤٦ ط بيروت.

وفي أخبار أبي خِراش الهُذَلي أنه دخل مكَّةَ " وللوليد بن المغيرة المخزوميٍّ فَرَسان يريد أن يرسلَهُما في الحَلْبَة، فقال للوليد: ما تجعلُ لي إن سبقتُهما؟ قال: إن فعلتَ فهما لكَ، فأُرسلا، وعدا بينهما فسبقَهما فأخذَهما"(١) وكانوا يعدون الفرارَ والعدوَ لوناً من ألوان قوَّتهم الجسدية، لأن فيه ما يُظْهِرُ شدَّةَ جريهم وسرعتهم، كما كانوا يرون فيه وسيلةً للنجاة من هلاكٍ مُحقَّقٍ حتى يستأنفوا القتالَ في ظروفٍ أشدّ ملاءمةً لهم، وبعبارةٍ أخرى حين يصبح القتال أمراً مضمون العاقبة وفي ذلك يقول أبو خِراشٍ الهُذَلي:

فإنْ تَزْعُمي أنّي جَبُنْتُ فإنَّني ... أَفِرُّ وأرْمي مَرَّةً كلَّ ذلك
أُقاتِلُ حتى لا أرَى لي مُقَاتَلاً ... وأَنْجُو إذا ما خِفْتُ بعضَ المُهالِك (٢)

ولا شكّ أنّ الصعاليكَ يمثلون ثورةً على النظامِ القبلي الاقتصادي والاجتماعي الذي كان سائداً في الجاهلية، وكان شِعرُهم مثالاً لشعر سياسي طريف، فهو شِعرُ الثورة والكفر بأوضاعٍ فَرَضَتْ عليهم الحرمانَ والفقرَ المُدْقِع، وذكر الأستاذ أحمد الشايب أنَّ تحلُّلَهم من النِّظام القبلي تبعه تحلُّلٌ من شخصيةِ القبيلةِ في الشِّعرِ، فلم يُعْنَ الصعاليكُ بتمثيل قبائلهم أو التعبير عنها، بل انفردوا بأنفسهم في الحياة، وانفردوا بها في الشعر " فكان قَصيدُهم مثالاً قوياً لشخصياتهم وسلوكهم، لا يكتمون منه شيئاً ولا يقصرون في التعبير عنه، فامتازوا بالصِّدْق والصراحة والقوَّة، وظهرتْ هذه الصفاتُ في فَنِّهم، فكان طريفاً مقبولاً، وهو من الشِّعرِ الغنائي الصحيح الذي يعتزُّ بالشخصيَّة الفرديَّة، وبهذا المذهب الثوري أو الاشتراكي"(٣).

وقد وجد الصعاليكُ في الصحراء الواسعة خيرَ مَوْطنٍ لتشييد صروح سلطانهم وإقامة حصونهم وثُكْناتهم، التي كانوا ينطلقون منها أسراباً في مختلفِ الجهات، يَسْلُبون وينهبون ثم يَفِرُّون عائدين إلى حصونهم وثكناتهم. وقد توفَّر فيهم كلُّ الصفات التي مكَّنَتْهم من تحصيل أقواتهم برماحهم، إذ كانوا شجعاناً شجاعةً نادرة عدائين عَدْواً ضُرِبَ به المَثَلُ، صابرين صبراً شديداً في كلِّ ما يواجهونه من صعوبات لا

---

(١) المرجع السابق ٢١/ ٢٣٣.
(٢) ديوان الهذليين ٢/ ١٦٩.
(٣) تاريخ الشعر السياسي ص٤٢.

تطاق، بصيرين بالصحراء ومجاهلها ودروبها،وبالجبال وشعابها،وبالأسواق ومواسمها، ومواقيت إقامتها،وهم لم يتركوا سبيلاً إلا سلكوه، ولا وسيلةً إلا استعانوا بها من أجلِ التغلُّبِ على ما يقابلهم من صعوباتٍ وأخطارٍ، كلُّ ذلك في سبيل التخلُّص من الفقرِ والجوعِ والحرْمان.

فمشكلة الفقر هي أهمُّ مشكلةٍ قاسوا جميعاً منها، وسعوا إلى التغلُّب عليها بالإغارة والاغتصاب، مُستَهِنين بالحياة ، ومُقْتَحمين الأهوالَ دون خوفٍ أو وَجَلٍ من الموت أو القتل، فكانَ هؤلاء الفقراء الجياع، المُحْتَقَرون في مجتمعهم المنبوذون فيه، ينظرون إلى الحياةِ ليشقّوا لهم طريقاً تُؤَدِّي بهم إلى حياة أفضل،لأنّهم جُرِّدُوا من وسائلِ الحياة المشروعة، فلم يجدوا أمامَهم إلا أمريْن: " إمّا أن يقبلوا هذه الحياةَ الذليلةَ المهينةَ التي يَحْيَوْنَها على هامشِ المجتمع، في أطرافه البعيدة خلفَ أدبارِ البيوت، يخدمون الأغنياء، أو ينتظرون فَضْلَ ثرائهم، أو يستجدونهم في ذلّةٍ واستكانَة، وإمّا أن يَشقّوا طريقَهم بالقُّوة نحو حياةٍ كريمة أَبيَّة يفرضون فيها أنفسَهم على مجتمعهم وينتزعون لقمةَ العيشِ من أيدي مَن حرموهم منها، دون أن يبالوا في سبيلِ غايتهم أكانت وسائلُهم مشروعةً أم غيرَ مشروعةٍ، فالحقُّ للقوَّة، والغايةُ تسوِّغُ الوسيلَة.

وقد سلك الصعاليكُ السَّبيليْن، أو بعبارةٍ أدقّ ـ انقسموا مع هذين السبيلين إلى طائفتين: "طائفةٌ قَبلَت ذلكَ الوضعَ الاجتماعيَّ الذليلَ الذي رَضيَهُ لهم ضعفٌ في النفس، أو ضعفٌ في الجسد، أو ضعفٌ في النفسِ والجسد جميعاً، وطائفةٌ رفضت ذلك الوضعَ ، وأبتْ أن تعيشَ تلك الحياةَ الساقطةَ التافهةَ المهينةَ، ووجدَتْ في القوَّة ، قوة النفسِ وقوة الجسد، وسيلةً تشقّ بها طريقَها في الحياة"(١).

وقد أخذَ معظمُ الصعاليك طريقَ القُّوة فلم يجدوا أمامَهم من وسيلةٍ يرضونها لأنفسهم إلا الاعتماد على القوَّة،يَسلُبون بها وينهبون ،ويؤمنون بأنَّ ذلكَ هو حقُّهم المسلوب ، فمضوا خلفَ أولئك الأغنياء المُتْرَفين، لا سيما البخلاء منهم، وتربصوا بالقوافلِ التجارية التي تسيلُ بها شعابُ الجزيرة العربية،حيث يهجمونها، ولا يترددون في قَتْلِ مَن يعترض طريقَهم، لأنَّ المسألةَ عندهم أصبحتْ لا تقبلُ أنصافَ

---

(١) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي د. يوسف خليف ص٣٤.

الحلول، فلا يعرفون حلاً وسطاً، فإما حياة كريمة، وإما ميتة كريمة، أما غير ذلك فشيء لا يؤمنون به. "لقد آمن هؤلاء الصعاليك بأن الحقَّ للقوَّة، وأنَّ الضعيفَ ضائعٌ حقُّه في هذه الحياة، ورأوا أمامَهم أولئك الصعاليك الفقراء المستضعفين وما يلاقونه من ذُلٍّ وضيم وهوان، فَرَثَوْا لهم، وآلَوا على أنفسهم أن يثأروا ممن استضعَفُوهم،وأن يفرضوا أنفسَهم فرضاً على ذلك المجتمع الذي أذلَّ إخوانهم الضعفاء"(١).

وكان المجتمعُ يرى في هؤلاء الصعاليك شُذَّاذاً خارجين عليه، فَتنَكَّر لهم وتخلَّى عنهم، وتركَهُم يواجهون الحياةَ دون أيّة حماية منه أو ضمانٍ اجتماعي،أمّا هم فقد رأوا في مجتمعهم مجتمعاً مُخْتَلاً ، يسيطر عليه ظلمٌ اجتماعي، وتسوده أنانيةٌ اقتصاديةٌ جائرةٌ،وأحسّوا به مجتمعاً تنقصُه عدالةٌ اجتماعيةٌ(٢) تُسَوِّي بين جميع أفراده، ويعوزه تكافؤٌ في فرصِ العيشِ يهيِّئ لكلِّ فردٍ فيه أن يأخذَ نصيبَه من الحياة، كما يأخذُ سائرُ الأفراد.

ونتيجة لذلك "فرَّ هؤلاء الصعاليك من مجتمعهم النظامي ليقيموا لأنفسهم بأنفسهم مجتمعاً فوضوياً، شريعتُه القُوةُ ، ووسيلتُه الغزوُ والإغارةُ، وهدفُه السَّلْب والنَّهْب، ووجدوا في الصحراء الفسيحة الواسعة التي لا تقيدها قيودٌ، ولا تحدّ من حريتها حدود، ولا يستطيع قانونٌ أن يخترقَ نطاقَها ليفرضَ سلطانَه عليها، (فكانت) مجالاً لا حدودَ له، يمارسون فيه نشاطَهم الإرهابيَّ، ويقيمون دولتَهم الفوضويةَ دولةَ الصعاليك،حيث يحيون حياةً حرَّةً متمردةً تسودها العدالةُ الاجتماعية وتتكافأ فيها فرصُ العيشِ أمام الجميع(٣).

ولهذا كانت القوافلُ التجارية الضخمة ورحلاتها الطويلة في مجاهل الصحراء تحتاج إلى الأَدلاَّء الذين يهدونها الطريق في دروب الصحراء الغامضَة، وإلى جانب الأَدلاَّء كانت القوافل تحتاج إلى "خفراء" أو حماةٍ يُؤَمِّنون سُبُلَها،ويدفعون عنها ذؤبان العرب وصعاليكهم. وذكر الدكتور شوقي ضيف أنه كان يصحب هذه القوافل أَدلاَّء يحمونها من الضلال في مجاهل الصحراء، ومن أشْهَرِهم فُرات بن حيان، كما كان يصحبُهم من الخفراء ما يبلغ ثلاثمائة عدّاً، ليحموا قوافلَهم من ذؤبان البادية

---

(١) المرجع السابق ص٤٧ .

(٢) المرجع نفسه ص٥٥ .

(٣) المرجع نفسه ص٥٥ .

وقراصنتها أو صعاليكها الذين تعودوا السَّلْب والنَّهْب،وذكر أن من أهم القبائلِ التي كانوا يخشون ذؤبانها قبيلتا هُذَيْل وفَهْم(١).

وإلى جانب الإغارة على القوافل التجارية كانوا يغيرون على مناطق الخصْب، وكانوا يرصدون طُرُقَ قوافل الحجاج القاصدة إلى مكَّة، ولذلك كانوا ينتشرون حولها في جبال السَّراة، كما كانوا ينتشرون بالقرب من المدينة والطائف وأطراف اليمن الشمالية، ففي هذه الجهات كان يكثر هؤلاء الذؤبان من قطاع الطُّرُق وقراصنة الصحراء.

وقد علَّلَ الدكتور يوسف خليف كثرةَ انتشار الصعاليك في منْطقَة السَّراة المحيطة بمكَّة، وفي قبيلة هُذَيْل بوقوع هذه المنطقة على الطريق التجاري، ثم لوجود ثلاث أسواقٍ مشهورةٍ فيها... وذلك حيث يقول: "إن منْ أسباب انتشار الصعاليك في هذه المنطقة وقوعَها على الطريق التجاري الذي يصلُ بين اليمن والشام مما جعلَها ممرّاً للقوافلِ التجارية، هذا إلى أنَّ قُرْبَها من مكّة حيث تقام ثلاث أسواق مشهورة عُكاظ ومجَنَّة وذو المجاز،جعل منها ميداناً نشطاً لحركات التجار في غُدُوِّهم ورَواحهم، مما أتاح للمتمردين من صعاليك هذه المنْطَقة الفرصةَ المواتيةَ للغارة والغزوِ للسَّلْب والنَّهْب، ولهذا السبب اضطر التجار في مناطق هذه الأسواق إلى أن يتخفروا بالقبائل القوية التي تنزلها"(٢).

على أنَّ هؤلاء الصعاليك لم يكونوا من طائفةٍ واحدةٍ من حيث نشأتهم، فلم يكونوا كلُّهم من الفقراء أو الخلعاء، فالناظر في أخبارهم، والمتتبع لظروف نشأتهم وحياتهم يستطيع أن يُمَيِّزَ منهم ثلاثَ مجموعات مختلفة تتألف منها عصاباتهم:

١- مجموعة من الخلعاء الشُّذَّاذ الذين أنكرتهم قبائلُهم وتبرّأتْ منهم وخلعتهم لكثرة جرائرهم، حيث أصبحت لا تَحْتَملُ لهم جريرةً ولا تطالب بدمهم، مثل حاجز الأَزْدي ، وقيس بن الحدَّادية، وأبي الطَّمَحان القَيْنيِّ.

٢- ومجموعة الأغربة السُّودِ من أبناء الحبشيَّات الإماء، ممن نبذَهم آباؤهم العرب ولم يعترفوا بهم، ولم ينسبوهم إليهم،لأن دماؤهم ليست عربية خالصة وإنما خالطَتْها

---

(١) العصر الجاهلي د. شوقي ضيف ص٧٦.

(٢) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي د. يوسف خليف ص١٣٣.

دماءٌ أجنبيةٌ سوداء، لا تصل في درجة نقائها إلى درجة الدم العربي،مثل تأبَّطَ شَرّاً، والشَّنْفَرَى ، والسُّليك بن السَّلَكَة.

٣- ومجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء، ولا من أبناء الإماء الحبشيات، وهم الذين احترفوا الصعلكة احترافاً، وكان ذلك نتيجة لتلك الظروف الاقتصادية المختلة التي كانت سائدةً في المجتمع الجاهليِّ، ويمثلهم عُروةُ بن الورد ومن كان يلتف حولَه من فقراء العرب، وكذلك تلك المجموعة الكبيرة من صعاليك هُذَيْل[١].

وكانت صيحات الجوعِ تتردَّد في أشعار الصعاليك، وتموج أنفسُهم بثورة عارمة على الأغنياء والأشحاء منهم بوجه خاصٍّ ، كما انتشرت أحاديثُ الإغارةِ والغزو والسَّلْب والنَّهْب في أخبارِهم وأشعارِهم انتشاراً واسعاً. وكان بعضهم يغزو ليُعينَ الفقراءَ والمرضى والمستضعفين من قبيلته، مثل عروة بن الورد[٢] الذي كان يعبِّر عن نفسٍ كبيرة حقاً،وكان من الفرسان المعدودين، والصعاليك المعروفين، وكان سمحاً جواداً يجمع حولَه الفقراء والمُعْوزين وذوي الحاجة، ويسدّ حاجتَهم، والطريف أنه كان إذا أخفق الصعاليك في غزوهم عَوَّضَهم ما كانوا يرجونه من غنائم، ولذا سُمِّي عروة الصعاليك، وقد كان يرى أن الموتَ أمرٌ لا بُدَّ منه، وسواء عليه أخرج للغارات أم لم يخرج فإن له أجلاً ينتهي إليه، ويرى أن شَرَّ الفقراء الخاملُ الساقطُ الذي لا يحتالُ في الحصول على المال بأيَّة سبيل كانت، وأنّ الصعلوك العامل النشيط المغامر هو الصعلوك المثالي، وأنه إذا قُتِلَ فإنَّ مكارمَه ومفاخرَه ستكون ذكراً طيباً له بعد موته.

وكان لا يَغير على كريمٍ يبذلُ مالَه للنّاس، ولكنه يختار لغارته وغزوه من عُرفوا بالشُّحِّ والبُخْلِ، ومَن لا يمدون يدَ المساعدة للمحتاج من قبائلهم، فكانت الصعلكةُ عنده ضرباً من ضروب النُّبْلِ الخُلُقي، ولوناً من ألوان الفروسية،وبلغ عروةُ في ذلك أنَّه كان لا يُؤثر نفسَه بشيء على مَن يرعاهم من صعاليكه، فلهم مثل حظِّه سواء غَزَوْا معه أم قَعَدَ بهم المرضُ أو الضعفُ، فضرب بذلك مثلاً رفيعاً في الرحمةِ والشفقةِ والبذلِ والإيثارِ.

---

(١) المرجع السابق ص٥٨.

(٢) من محاضرة للأستاذ المرحوم الدكتور محمد سرحان للدراسات العليا سنة ١٩٧١م.

وكان لا يستطيع القعودَ عن الغزْوِ كما كانت تريدُ له زوجُه، فقد كانت تلومه على مغامراته وغاراته، وتخشى عليه الرَّدَى والهلاكَ، وتعذله على بذل ماله وعدم الإبقاء على شيء منه، وهو يصدُّها عن هذا اللوم، ويرى أن مكارمَه تفرضُ عليه هذه المغامرات، ليحصلَ على المالِ الذي يوزعه على قرابته وغيرهم من ذوي الحاجة فإن عليه واجبات وحقوقاً لأقربائه المحتاجين من قبيلته، ونسائها المُعْوِزات، وكذلك طلاب العطاء من الضعفاء، فهو يغزو من أجلِ الوفاء بحقوق هؤلاء جميعاً.

ونراه يعرض على زوجته صورتين للصعلوك، صورة رديئة وصورة جيدة أما الصورةُ الأولى : فهي صورةُ الصعلوك الخاملِ الساقط الذي يرضى أن ينالَ أكلَه من فُتَات مائدةٍ، ولا يهمه أهله ولا عياله ولا قوتهم، فهو صعلوكٌ خاملٌ يقعد عن طلب الغنى ، ويرضى بخدمة نساء الحي المترفات، فهذه الصورة تمثل الصورةَ السيئة للصعلوك عند عروة، فنراه يقول:

لَحَى اللّهُ صُعْلوكاً إذا جَنَّ لَيلُهُ ... مَضَى في المُشَاشِ آلفاً كُلَّ مَجْزَرِ

يَعُدُّ الغِنَى من دَهْرِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ ... أَصابَ قِراهَا من صديقٍ مُيَسَّرِ

قليلَ التماسِ المالِ إلا لنَفْسِه ... إذا هو أَضْحَى بالعَريشِ المُجَوَّرِ

يَنامُ عِشاءً ثم يُصبِحُ قاعداً ... يَحُتُّ الحَصَى عن جَنْبِهِ المُتَعَفِّرِ

يُعِينُ نساءَ الحَيِّ ما يَسْتَعِنَّهُ ... فَيُضْحِي طليحاً كالبَعيرِ المُحَسَّرِ (١)

أما الصورةُ الثانية ، صورةُ الصعلوك الآخر الشريف، فهو جديرٌ بكلِّ ثناء وتشجيع من الزوجة وغير الزوجة، لأنه صعلوكٌ عاملٌ يقضي حياتَه في العمل والكفاح والمغامرة، فهذا الصعلوك يُعْجَبُ به عروةُ إعجاباً شديداً ، لأنّه وأمثالَه آمنوا بمذهبه في الحياة وسلكوا سبيلَه فيها، وهو لذلك يمدحُه ويضفي عليه ثناءَه، فهو صعلوكٌ وجهُهُ مُشْرِقٌ بأعماله المجيدة، وهو لا يزال يُطِلُّ على أعدائه ويشرفُ عليهم، فيظفرُ بكلِّ ما يريد، على الرغم من صياحهم به وزجرهم له، ثم إنهم لا يأمنون غزوَهُ ، بل إنهم

---

(١) الأصمعيات ص٤٣ . لحاة الله: قبَّحَه ولَعَنَه، المشاش: رؤوس العظام اللينة التي يسهل مضغها، أو مخ العظم كذلك، وهي في الحالين جمع مشاشة. المجزر: موضع الجزر، العريش عش من قصب أو جريد أو نحو ذلك، والمُجَوَّر: الآيل للسقوط، الطليح: الكليل الذي أصابه الإعياء والهزال، البعير المُحَسَّر: المتعب ذو العناء، يعني أنه خامل.

ينتظرونه انتظار أهلِ الغائب له، ويعلمون أنَّه لا بُدّ راجعٌ إليهم ومُصيبٌ منهم،ثم يقول: إن مثلَ هذا الصعلوك المغامر الجريء إنْ يمتْ تظلّ ذكراه خالدةً لمحامده ومناقبه فنراه يقول:

وللهِ صُعْلُوكٌ صَفيحَةُ وجْهِهِ ... كَضَوْءِ شِهابِ القابِسِ المُتَنَوِّرِ
مُطلاً على أعدائه يَزْجُرُونَهُ ... بساحَتِهِمْ زَجْرَ المَنيحِ المُشَهَّرِ
وإنْ بَعُدُوا لا يأمَنُونَ اقْترابَهُ ... تَشَوُّفَ أَهْلِ الغائِبِ المُتَنَظَّرِ
فذلكَ إنْ يَلْقَ المَنيَّةَ يَلْقَها ... حميداً وإن يَسْتَغْنِ يوماً فأَجْدِرِ (١)

وهكذا كان عروةُ الصعاليك ينادي بمذهبه في أرجاء المجتمع الجاهلي، واستطاع أن يرفعَ شأن الصعلكة ويجعلَها ضرْباً من ضُروب السيادة والمروءة، فقد كان يستشعر في قُوّة فكرة التضامن الاجتماعي(٢)، وما ينطوي فيها من إيثار وبرٍّ بالفقراء، فهو لا يسعى لنفسه فحسب، ولكنه يسعى للمُعْوزين من عشيرته قبل كلِّ شيء، محاولاً أن يدفَع عنهم البؤس والشقاء، ولا شك أن دعوته هذه قد لقيت إعجاباً من المجتمع حتى بعدَ ظهور الإسلام، وفي البلاط الأمويِّ نفسه، فيروى أن معاوية قال: "لو كان لعروة ابن الورد ولدٌ لأحببتُ أن أتزوج إليهم،" وقال عبد الملك: " مَن زعم أن حاتماً أسمحَ الناس فقد ظلم عروةَ بن الورد(٣).

واشتهرت هُذَيْل بكثرة صعاليكها وذؤبانها شهرةً واسعةً، حتى إنها لفتت أنظارَ العلماء والنُّقَاد إلى هذه الناحية، يقول الأصمعي: " إذا فات الهُذَلي أن يكون شاعراً أو ساعياً أو رامياً فلا خيرَ فيه"(٤) ويقول يونس بن حبيب: "ليس في هُذَيْل إلا شاعر أو رام أو شديد العدْوِ"(٥). وذكر الأصمعيُّ في كتابه: "فحول الشعراء" أنَّ في هُذَيْل

---

(١) صَفيحَة الوجه: بشرة جلده، الشهاب: شعلةٌ من نار ساطعة، القابس: الذي يقبس النار، أي: يأخذها، المُتَنَوِّر: المضيء، مطلاً على أعدائه: مشرفاً عليهم لغزوهم دائماً، يزجرونه: يصيحون به كما يزجر القدح الذي يستعار في الميسر، والمنيح هنا: قدح مستعار سريع الخروج والفوز، والمشهر: المشهور، حميداً: شريفاً محموداً.

(٢) العصر الجاهلي د. شوقي ضيف ص٣٨٧.

(٣) الشعراء الصعاليك د. يوسف خليف ص٣٣٠.

(٤) الأغاني ٢١/٢٣٣. وفي الأصل «فاتك» وهو خطأ.

(٥) البيان والتبيين ١/١٧٤.

أربعين شاعراً مُفْلقاً،وكلّهم يعدُو على رجله ليس فيهم فارس[1]، وفي موضع آخر يذكر أن الأعلمَ الهُذَليَّ كان من مشاهير الصعاليك والفرسان[2]، فهذا كله إن دلَّ على شيء فإنما يدلّ على كثرة الصعاليك والعدائين عند هذه القبيلة، وأنهم بلغوا من الكَثْرَة بحيث إنهم لفتوا أنظارَ العلماء والنُّقّاد.

ومن أشهر صعاليك هُذَيْل : أبو خِراش والأعْلَم وصَخْر الغَيّ - وهو أخو الأعلم وعمرو ذو الكلب وغيرهم كثيرون، وذكر صاحب الأغاني أن بني مُرَّة وهم أبو خِراش وإخوته كانوا عشرة، وكانوا جميعاً شعراء دُهاة سِراعاً لا يُدْرَكون إذا عَدَوا، وهم أبو خِراش وأبو جُنْدُب وعروة والأبَحّ والأسْوَد وأبو الأَسْوَد وعَمْرو وزهير وجَنَّاد وسُفيان[3].

وقد قامَ الدكتور أحمد كمال زكي في بحثه بتقسيم المجتمع الهذليّ إلى قسمين: مجتمع مستقرّ وهم الوادعون، ومجتمع ثائر وهم الصعاليك والذؤبان،وذكر أن الصعاليك كانوا يوجدون في ثلاث مناطق[4]:

١- مناطق الخِصْب والماء.

٢- المناطق التجارية والطُّرُق المؤدية لها.

٣- مناطق الأسواق العامّة والقنص.

فالمناطقُ الأولى كانت في كثيرٍ من جوانب أرضِ السَّراة ونواحي المدينة بالذات، حيث كانت العيون وكان النخيل والزيتون والعسل،ثم المناطق التي بين مكَّة والطائف لا سيما حول الطائف، وفي الوديان والجبال القريبة منها.

والمناطق الثانية هي الطرق التجارية التي كانت تقطع أرضَ الحجاز، وكان الصعاليك يتوزعون على الطُّرُق مُسْتَخْفين في الجبال، حتى إذا اقتربت إحدى القوافل باغتوها ثم أسرعوا في شِعاب الجبال لا يقدر على إمساكهم أحدٌ.

وقد عُرِفَت هُذَيْل بذلك حتى قيل: "كانت هُذَيْل بشُذَّاذها إحدى القبائل التي خافَها العَربُ، وكان تركزها فيما بين مكَّةَ والطائف وحول مكَّةَ بالذات، مما جعل

---

(١) فحولة الشعراء ص٣٧.

(٢) المرجع السابق ص٢٩.

(٣) الأغاني ٢١/ ٢٤١.

(٤) شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي ص١٠٨.

غيرَها يحسب لها ألف حساب. ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا اختارت هذه المنْطَقةَ مركزاً لتجمعاتها، وتحدثنا الأخبار أن قريشاً كانت تحرِصُ على وُدِّها ،وتعمل على أن يكون بينهما سلامٌ مستديمٌ"(١).

وأخيراً مناطق وجود الأسواقِ كانت تُقام حيث يوجد الماء، وكانت تنزل فيها القوافل،وتخلص إلى نوعٍ من التبادلِ مع العشائر القريبة منها، وكان الزحامُ هناك يشتدُّ والحركةُ تعظُم لاسيما في الأسواق الكبيرةِ كعُكاظ ومَجَنَّة وذي المجاز.

ولكن هناك نقطة لا بأس من ذكرها، وهي أنَّ أشعارَهم لم تحدِّثْنا عن غاراتِهم على القوافلِ التجارية، وذهب الدكتور أحمد كمال زكي في تعليل ذلك إلى أنَّه كان شيئاً عادياً متكرراً يقع كلَّ يوم ،ثم إنه لم يكن فيه من الخطورة مثل ما كان يتعرض له الصعلوك وهو يغير على حَيٍّ بأكمله، يقول: "ولا يحدِّثُنا الشِّعرُ طويلاً بهذه الغارات التي كانت تتعرض لها القوافلُ التجارية،وليس معنى ذلك انتفاء وقوعِها، بل إنها كانت شيئاً عادياً متكرراً،يقع في اليوم الواحد مرّاتٍ ومرّات،ثم لأنه لم يكن فيه من الخطورة مثل ما كان يتعرض له الصعلوكُ وهو يُغير على حيٍّ كاملٍ. والشِّعرُ نفسُه يعرض لهذه الغزوات دون أن يفسِّرَها أو يأبَه لها، فهي أمرٌ من صميمِ عَمَلِ الصعلوك"(٢).

ويبدو لي أنَّ حقيقةَ الأمرِ هي على العكس من ذلك، وأنَّ غزوَهم للقوافلِ التجارية كان قليلاً، وأنَّ جُلَّ اعتمادهم في الغزو والغارات كان على الأحياء ونحوها، ففي أشعارِهم صورٌ كثيرةٌ للغزوات الفردية التي كانت منتشرةً هنا وهناك بين أفناء البادية.

والواقع أن القوافلَ التجاريةَ كانت تتمتع بحراسةٍ مشدَّدة،تصل إلى ثلاثمائة من الخفراء المسلحين، وهذا بالإضافة إلى الأَدِلاَّء الذين كانوا يحمونها من الضلال في مجاهلِ الصحراء(٣).

---

(١) المرجع السابق ص١١٢.

(٢) المرجع نفسه ص١١٣.

(٣) العصر الجاهلي د. شوقي ضيف ص٧٦.

ولذا أزعم أن غزوَهم للقوافلِ التجارية كان قليلاً بالنسبة إلى غزوهم للأحياء من العرب، وبالنسبة لغزواتهم التي كانت منتشرةً انتشاراً واسعاً.

أضف إلى ذلك أن غزو القوافلِ التجارية لم تُصورْه أشعارُهم، فهل معنى ذلك أنه كان شيئاً عادياً لدرجةٍ لم تحفلْ به أشعارُهم؟ والمعروف عن الشعراء الصعاليك أنهم لم يتركوا صغيرةً ولا كبيرة في نواحي حياتهم، أو مشاهداتهم اليومية إلا سجلوها في أشعارِهم، فشعرُهم صورةٌ صادقةٌ لتصرفاتهم وأعمالهم وتفكيرهم، ألَيْسَ لنا أن نتساءل إذن لماذا لم تصور أشعارُهم غزوَهم للقوافل العربية؟ ألا يجوز أن يكون غزوُهم للقوافل التجارية قليلاً أو نادراً بالنسبة إلى نشاطهم في الغزوِ والغارات في المجالات الأخرى.

أما الأسواق فالحقّ أنه لا يوجد في أشعارهم ما يشير إلى غزوِها ونَهْبِها أو ما إلى ذلك، ويرى الدكتور أحمد كمال زكي أن الذؤبان اكتفوا بأن يقفوا للتجار في الطُّرُقِ المؤدية إلى الأسواق، يقول: " فهل تزعم أن ذؤبانها كانوا يتربصون للناس في السُّوق؟ لم أجدْ في شِعرِهم أو فيما يروى عن القبيلة أن هُذلياً استطاع أن يظفَر بشيء في إحدى الأسواق، وكان ذلك يجب أن يكونَ، وما ينبغي أن نُسقطَ من حسابنا ما يكون في السوق عادةً من حركةٍ ونشاطٍ وازدحامٍ، وهذا الازدحام بالذات كان يفسد خططَ الصعاليك، ويعوقُهم عن القيامِ بما اعتادوه من تربصٍ ومفاجأة ثم هروب سريع. فكان يكفي الذؤبان أن يقفوا للتجارِ أرصاداً على الطُّرُقِ المؤدية إلى السُّوقِ"(١).

فالواقع أننا لا نجدُ لذؤبان هُذَيْل من شِعرٍ في غزوِ الأسواق مما يرجِّحُ عدمَ غزوهم لها، أو إغارتهم عليها للسَّلْبِ والنَّهْب، وسيأتي - بعد قليل - ما يوضح أن جُلَّ اعتمادهم في الغزوِ والغاراتِ كان على أعدائهم، أو على الأحياء من العرب، وعندي أن غزوَ الأحياء، وغير ذلك كان أسهلَ عليهم من غزوِ القوافل التي كانت تتمتع بالحراسة المشددة والمسلَّحة، وذلك أن غزوَ الأحياء مع ما يصاحبه من مخاطرةٍ ومغامرةٍ كان يتمّ بعد تخيّرهم الأوقات المناسبة، حتى إذا رأوا الهلاكَ أمام أعينهم استعانوا على ذلك بالعدوِ والفرارِ الذي عُرِفَ عنهم السرعةُ فيه. يقول أبو خِراش:

---

(١) شعر الهذليين ص١١٤.

فـإنْ تَزْعُـمِي أنيَ جَـبُنْتُ فـإنَّني أَفِـــرُّ وأَرْمِـي مَـــرَّةً كُـلَّ ذلكِ

أقـاتِلُ حـتى لا أرى لِي مُـقَـاتَلاً وأنْجُو إذا مـا خِفْتُ بعضَ المهالكِ (١)

فالفرارُ عندَهم ليس مِن قَبيل الجُبْن ولكنّه خطةٌ موضوعةٌ، لأنه وسيلةٌ للنجاةِ من هلاك مُحَقَّق،فهم يقاتلون إذا كان القتالُ ممكناً ، أو حينما يعرفون أن القتالَ أمرٌ مضمونُ العاقبةِ، فإذا رأَوا أنَّ الأمرَ خلاف ذلك لاذُوا بالفرارِ والعدْوِ حتى يعودُوا سالمين.

ولا نعجبُ حين نرى أبا خِراش ـ الذي كانت حياته في الجاهلية سلسلةً من الغارات والغزوات، وكانت موضوعات شعره متصلةً بها أوثق الاتصال،وممثلةً لها أصدقَ تمثيلٍ ـ عندما أنْعَم اللهُ بالإسلام دخَلَ في دين الله ، وأسلمَ وحَسُنَ إسلامه، وانقاد لتعاليم الإسلام انقياداً ظهرت آثارُه على سلوكه، فإذا هو لا يغير ولا يغزو، وكأنه لم يكن من الصعاليك، كما ظهرت آثارُ ذلك على موضوعاتِ شعرِه. فإذا هو يعزف عن أحاديث الفقرِ والتصعلك، والغارات والغزوات ونحو ذلك. أقولُ: لا نعجبُ حين نعلم أنَّه عندما نهشته الحيَّةُ في ساقه وماتَ بسبب ذلك في قصة مشهورة(٢)، يحزن حزناً شديداً، ولا يأسف على شيء في الحياة كما يأسف على ساقه التي نهشتها الحيَّةُ ، والتي طالما أسعَفَتْه في الخلاصِ والفرارِ من أعدائه المتربصين به على طولِ الجزيرة العربية وذلك حيث يقول:

لقَـدْ أَهْلَكْتِ حَـيَّـةَ بطْنِ أَنْفٍ على الأصحابِ ساقاً ذاتَ فَضْلِ

فـمـا تَرَكَتْ عَـدُوّاً بين بُصْـرَى إلى صَنَعـاءَ يَطْلُبُـــهُ بِذَحْلِ (٣)

وقد تحدَّث صعاليكُ هُذَيْل عن الأهداف التي يقصدونها بغزواتهم وحاولوا تحديدَ تلك الطوائف مِن مجتمعهم التي يرون أن يوجهوا إليها رؤوسَ حرابهم، ومن الطبعي أنها طبقةُ أصحابِ المال والأغنياء، لأنها الهدفُ الدّسم الذي يسيلُ له لعابُهم، فهذا الأعلمُ يقصد أولئك السِّمانَ المترفينَ،وفي مقطوعةٍ له يرسمُ صورةً ساخرةً ولكنها طريفةً،لنموذجٍ من أولئك الذين يجعلُ منهم هدفاً لغزواته وغاراته،

---

(١) ديوان الهذليين ٢/١٦٩، شرح أشعار الهذليين ٣/١٢٤١.

(٢) الأغاني ٢١/٢٥٢.

(٣) المرجع السابق ٢١/٢٥٢.

فهو يرسمُ لنا صورةَ رجلٍ غَنيٍّ سمينٍ مُتْرَف، يعيش بين الستائرِ والحظائرِ ، وتوجّه إليه امرأتُه رعايتَها وعنايتَها، حتّى سمَّنَتْه فأصبحَ من صُنْعها، ولكنه مع ذلك رجلٌ ضعيفُ القلبِ لو اخترقَ الصحراءَ لخافَ وفزِعَ، لأنه يخافُ من أولئك الصعاليك المتربصينَ له ولأمثاله في أرجائها، الذين إذا رأوه انْصَبُّوا عليه كما تتفجر المياهُ من حوضٍ متهدِّمٍ يحاول صاحبُه إصلاحَه دون جدَوى، وهو عندئذٍ تضطرب نفسُه وينهارُ، ويفسدُ صُنْعَ امرأته ويذهبُ سُدَى، يقول:

أَيَسْخَطُ غَزْوَنا رجلٌ سَمينٌ ... تُكَنِّنُهُ السِّتارَةُ والكَنيفُ

ولَوْ رَفَعْتَ ثَوْبَكَ في خُروقٍ ... تَروعُكَ في مهالكِها الشُّدُوفُ

تخافُ لِزامَ عادِيَةٍ ثَعُولٍ ... كما يَتَفَجَّرُ الحوضُ اللَّقيفُ

إذاً لَذَكَرتَ حالَكَ غيرَ عَصْرٍ ... وأَفْسَدَ صُنْعَها فيكَ الوَجيفُ (١)

ونراهم في أشعارِهم يتغنون بمغامراتهم ويتمدحون بالكرم، كما نرى فيهم كثيراً من البرِّ بالأقاربِ والأهل،وكذا نحسّ عندهم كثيراً من الترفع والشعور بالكرامة في الحياة،ويصوّر لنا ذلك أبو خراشٍ الذي يفتخر بأنه يصبرُ على الجوع، دون أن يلحقه فيه ضيمٌ، وأنه ليكفيه الماءُ القَراح،بينما يتخم من حوله من أشحاء النفوسِ بالطعام،أما هو فحتّى إن وُجدَ الطعامُ آثر به عيالَه وأولاده، فنراه يقول:

وإنِّي لأُثْوِي الجُوعَ حَتّى يَمَلَّني ... فيذْهَبَ لم يُدْنِسْ ثيابي ولا جرمي

وأَغْتَبِقُ الماءَ القَراحَ فأنْتَهي ... إذا الزّادُ أمْسَى لِلْمُزَلَّجِ ذا طَعْمِ

أَرُدُّ شُجاعَ البَطْنِ قد تَعْلَمينَهُ ... وأُوثِرُ غَيْري من عِيالِكِ بالطُّعْمِ

مَخافَةً أنْ أحْيا بِرَغْمٍ وذِلَّةٍ ... ولَلْمَوْتُ خيرٌ من حياةٍ على رَغْمِ (٢)

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ١ / ٣٢٨. الخروق: جمع خَرْق وهو القَفْر والأرضُ الواسعةُ تتخرق فيها الرياح، الشُّدُوف: جمع شَدَف وهو الشخص، واللزام: العذاب، الثعول: التي لها زياداتٌ بمنزلة الضرع، الحوض اللقيف: المُصْلَح قد طُيِّن وسُوِّي من نواحيه، الوجيف: ضَرْب من السير أو هو الاضطراب يقول: أفسدَ برَّها وتَتْريفَها، وما صَنَّعَتْكَ وسَمَّنَتْكَ، فلما ركبتَ الإبل ذهبَ ذاك.

(٢) المرجع السابق ٣ / ١٢٠٠. أثوى الجوع: أطيلُ حَبْسَه، الجِرْم: الجَسَد، المُزلَّج: الذي ليس بالمتين، ذا طعم، أي: ذا شهوة إذا اشتهاه وكان طيباً عنده. الطُّعْم: الطعام، رَغم: هوان ومذلة.

أما الأعلمُ فإنّه يصوِّر فَقْرَه في صورةٍ بدويةٍ ساذجةٍ، ولكنها طريفةٌ حقاً، وكان قد أُعْطِي بعيراً فنحرَه لصبْيَتِه، وكان أعْجَفَ، فعابت عليه جارةٌ له ذلك اللحمَ، فنراه يفتخر بهذا اللحم، لأنه يأكله بشرفٍ في غير منقصة ولا إثم، ودون أن يلحقه عار، يقول:

زَعَـــمَتْ خَنازِ بأَنَّ بُرْمَـــتَنَا ... تَغْلي بِلَحْمٍ غـيـرِ ذِي شَـحْمِ

إلى إن يقول:

إِنَّا لنأْكُلُ لَحْمَنا فَاسْتَيْقِني ... في غـيـرِ مَنْقَصَـةٍ ولا إِثْمِ (١)

ولقد تحدَّث صعاليكُهم عن الغايةِ التي يريدون أن يصلوا إليها من وراء الغارات والغزوات التي يسلكونها في حياتهم، وهي الغنى،ويُسجِّلُ الأعلمُ في أبيات له الأسبابَ التي يحرصُ على الغنَى من أجلها، فالمالُ يغنيه عن الناسِ من ناحيةٍ، وهو يعين به الداعين إذا حلَّت بهم عظيمةٌ من ناحية أخرى، وهو فوق ذلك يعدّه للأضيافِ والمُعْوزين وذوي الحاجة في أيام الجَدْب والشّدّة التي لا يجدُ الناسُ فيها ما يقدمونه إلى مَن بَكَّرَتْ بغلام، وحين لا تجد الأم شيئاً تسكتُ به فطيمَها عن البكاءِ والصراخ جوعاً، يقول:

أَحُبْشيُّ إنَّا قد يُمَتِّعُنَا الغنَى ... بأَمْوالنَا نُريحُهَا ونُسِيمُهَا

ونَحْبِسُها على العظائم نَتَّقِي ... بها دعوةَ الدّاعِينَ إنَّا نُقِيمُهَا

إذا النُّفساءُ لم تُخَرَّسْ بِبِكْرِهَا ... غُلاماً ولم يُسْكَتْ بحترٍ فَطِيمُهَا (٢)

وكان بين صعاليك هُذَيْل وصعاليكِ فَهْم عداوةٌ مُسْتَحْكَمَةٌ، وكانت الغزوات والغارات دائمةً بينهما، فما كانت تنتهي حتى تبدأ، وفي كتاب شرح أشعار الهذليين أحاديثُ كثيرة متعددة الألوان والأوضاع لهذه الغارات، ولهم في ذلك قصائد ومقطوعات كثيرة، يردِّدُ الصعاليك فيها أقاصيصَ هذه الغاراتِ في فخرٍ وإعجاب،

---

(١) المرجع نفسه ١ / ٣٢٤. خناز: مُنْتِنَةٌ، يقال: خنز اللحمُ وخَزَنَ وخِناز: فِعال من خَنَزَ اللحم. وجعل ذلك اسماً علماً.

(٢) المرجع نفسه ١ /٣٢٦. نُريحها، أي: بالعشيِّ إلى مباءَتها، ونُسميها، أي: بالغداة إلى مَراعيها، ونحبسها، أي: على الأضياف، نقيمها: نُعدُّها، الخُرْسَة: طعامُ الولادة، الحَتْرُ: الشيء القليل، دعوة الداعين: إذا دَعَوْا مَن يُعين؟ ومَن يحملُ الديات؟ ونحو ذلك.

واعتداد بأنفسهم وبطولتهم، مع ذكر ما حقَّقوه في غاراتهم وغزواتهم من الأَخْذِ بالثأرِ وردِّ الشَّرَفِ والاعتبار.

وكان بين هاتين القبيلتين كثيرٌ من الغارات والغزوات الفردية، ويروى أن عَمْراً ذا الكلب كان يغزوها -يعني فَهْماً- غزواً دائماً ومتصلاً، حتى تمكنت من قَتْله، ولعلَّ في قصة مَقْتَله[1] ما يبيِّنُ مدى تلك العداوة الشديدة التي كانت بين القبيلتين، وما يكشف كذلك عن فَوْضى الصعلكة التي كانت سائدةً في الجاهلية،فيروى أن عَمْراً ذا الكلب كان قَد عَلِقَ امرأةً من فَهْمٍ تُدْعَى أُمَّ جُلَيْحَة وأحبَّها وأَحَبَّتْه، وكان أهلُها قد وجدوا عليها وعليه، وطلبوا دمَه، وحدَث أن أقبلَ عَمرو ذات مرَّةٍ حتّى دخل إليها، وبات عندها، حتى إذا كان عند السَّحَرِ خرجَ فلَحَظَتْه عجوزٌ منهم، فأخبرتْ قومَها وقالت: "ثَكلَتْكُم أُمُّكم، قد باتَ عَمرو في داركم، فماذا فَعَلَ فيها؟ قالوا: إنك كاذبةٌ، واللهِ إنْ رأيْتِه! قالت: بلى واللهِ، لقد تَخَطَّى طُنُبَ بيتي رِجْلا رَجُلٍ، إنهما لرِجْلا عَمرو ذي الكَلب، وقد قَبَلَ هذاكم الشِّعْبَ، ولَيُصْبِحَنَّ به، فتنادى القومُ فأصبحوا قد صَنَعُوا الشِّعْبَ في مثل المَسَكَة"[2].

فخرجوا في أثره وخرج هارباً منهم، وهم على أثره حتى أمسى وهاجت عليه ريحٌ شديدة في ليلةٍ ظلماء، فبينما هو يسير إذ رأى ناراً عن يمينه فحارَ وشكَّ في أنه أخطأَ الطريقَ، ثم قصدَ تلك النارَ حتى أتاها،فإذا رجلٌ قد أوقدَ النّارَ وليس معه أحدٌ، فسأله عَمرو ذو الكلب: من أنت؟ قال:أنا رجل من عدوان، قال: فما اسم هذا المكان؟ قال: السَّدّ، فعلم أنه قد هلكَ وأخطأ، والسَّد شيء لا يجاوز، فقال عمرو: ويلك،فلم أوقدت؟ فواللهِ ما تشتوي ولا تصطلي، وما أوقدت إلا لمنية عَمرو الشقي! ثم سأله أن يُطْعِمَه شيئاً فأعطاه تمرات قذفها في يده، فقال عمرو: تمرات تتبعها عبراتٌ،من نساء خفرات، ثم قال له: اسقني، قال: ماءً أو لبناً؟ قال: لا، ولكن اسقني ماءً قَراحاً فإني مقتولٌ صباحاً[3].

---

(١) وهناك رواية أخرى في مَقْتَله، وهي أن عَمراً ذا الكلب خرج غازياً، فبينما كان نائماً في بعض غاراته، وثبَ عليه نمران فأكلاه، ثم وَجَدَتْ فَهْمٌ سلاحَه فادعتْ قَتْلَه. انظر كتاب شرح أشعار الهذليين ٢/٥٧٨ والأغاني ٢٢/٣٨٧.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢/٨٥٤، ٨٥٥.

(٣) الأغاني ٢٢/٣٨٨.

ويروي صاحبُ الأغاني أن عمراً ذا الكلب، انطلقَ فأسند في السَّدِّ، ورأى القومُ الذين جاؤوا في طَلَبِه أَثَرَه حيث أخطأ، فَأَتْبَعُوهُ حتى وجدوه، فدخلَ غاراً في السَّدِّ، فوقفوا على باب الغارِ، فنادوه فقالوا: يا عمرو: فقال ما تشاؤون؟ قالوا: اخرج، قال: فلم دخلت إذن؟ قالوا: بلى فاخرج، قال: لا أخرج، قالوا: فأنشدنا قولك:

ومَقْعَدِ كُربَةٍ قد كنتُ مِنْها مكانَ الإصْبَعَيْنِ من القِبالِ (١)

قال: ها هي ذي أنا فيها، قال: وعَنَّ له رجلٌ من القوم، فرماه عَمْرٌو فقتلَه، فقالوا: أقتلته يا عدّو الله؟ فقال:أجلْ،ولقد بقيتْ معي أربعةُ أسهمٍ، كأنها أنيابُ أمِّ جُلَيْحَة، لا تصلون إليَّ أو أقتل بكل سهم منها رجلاً منكم، فقالوا لعبدهم: يا أبا نجاد، ادخل عليه وأنت حرّ، فهيأ للدخول أبو نجاد عليه، فقال له عمرو ويلك يا أبا نجاد، ما ينفعكَ أن تكون حُرّاً إذا قتلتُكَ، فنكصَ عنه، فلما رأوا ذلك صعدوا فَنَقَّبُوا عليه، ثم رموه حتى قتلوه، وأخذوا سَلَبَه، فرجعوا به إلى أمِّ جُلَيْحَة وهي تتشوف، فلما رأوْها قالوا لها: يا أم جليحة.... مارأيك في عمرو؟ قالت:رأْيي والله أنكم طلبتموه سريعاً، ووجدتموه منيعاً، ووضعتموه صريعاً، فقال واحد منهم: قد والله قتلناه، فقالت: والله ما أراكم فعلتُم، ولئن كنتم فعلتُم لرب ثدي منكم قد افترشَه، وضبٌّ قد احترشَه، فطرحوا إليها ثيابه، فأخذَتها فشمَّتْها فقالت: ريحٌ عَطِرٌ، وثوبُ عمرو، أما والله ما وجدتموه ذا حجزة جافية ولا عانة وافية ولا ضالةٍ كافية"(٢).

وقالت جنوب أخت عمرو ذي الكلب، ترثيه في قصيدة مطلعها:

كلُّ امرئٍ بطَوَالِ العَيْشِ مَكْذُوبُ وكُلُّ من غَالَبَ الأيَّامَ مَغْلُوبُ (٣)

ولم تكن الغزوات الفردية التي قام بها صعاليك هُذَيْل موجهةً إلى قبيلة فَهْم فحسب، ولكنها كانت مع كثير من القَبائل المجاورة كثُمَالة وكِنانة وغيرها، ومما يروى من ذلك أن زهير بن مُرَّة - وهو أخو أبي خِراش - خرج معتمراً،وجعل على جسده من لحاء الحَرَمِ،حتى ورد ذات الأَقْبُرِ من نَعْمَانَ،وبينما كان يسقي إبلاً له إذ فاجأه قوم من ثُمالةَ وقتلوه، فقام أبو خِراش بغزو ثُمالةَ، ويُغير عليهم حتى قتل بأخيه أهلَ دارَين من ثُمالة، وقال:

---

(١) قبال النعل: زمامها، أي: توسطتها كما يتوسط قِبال النعل الإصبعين.

(٢) الأغاني ٢٢ / ٣٩٠.

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٨٥٥.

خُـذُوا ذلك بـالـصلـحِ إنِّي رأَيْتُكُـم   قـتلتُم زُهيـراً وهـو مُـهْـدٍ ومُـهْـمِلُ
قَـتلتُمْ فـتـىً لا يَفْـجُـرُ اللَّهَ عـامِـداً   ولا يَجْـتَـويه جـارُه عـامَ يُـمْـحِلُ [١]

ثم أخذ يعيرهم بقوله:

إنِّي امـرؤٌ أسـألُ كـيـمـا أعْلَمـا   مَن شَـرُّ رهطٍ يشـهَـدُون المَوْسِـمَـا
وَجَـدْتُهم ثُـمَـالَةَ بـن أَسْلَمَـا [٢]

وفي كتاب شرح أشعار الهذليين والأغاني الكثيرُ من أحاديث الغزوات والغارات الفردية التي كان يقوم بها صعاليك هُذَيْل هنا وهناك،حيث كانوا ينتشرون بين أفناء البادية.

وأهمُّ ما يمتاز به الصعاليكُ والذؤبان من هُذَيْل أنهم أفاضوا في التحدث عن مغامراتهم، وعن فرارهم من أعدائهم، وسرعة عَدْوِهم بشكلٍ واسعٍ، ثم التحدُّث عن سلاحهم ووصفه، وكذلك تربُّصهم لأعدائهم فوق المراقب، هذا إلى أحاديث فقرهم وتشردهم هنا وهناك، وانتشارهم بين سهول البوادي ونجادها.

ولنتحدث عن ذلك لعله يعطي صورةً واضحةً عن صعاليك هُذَيْل وذؤبانها وعن انتشارهم في منطقة السَّراة خاصَّة، ومناطق الحجاز والبادية بوجهٍ عامٍّ.

العدو والفرار:

لقد تحدث صعاليك هُذَيْل كثيراً عن عَدْوِهم وفرارِهم من أعدائهم المتربِّصين بهم، فكان حديثهم عن مغامراتهم وغزواتهم وغاراتهم يتضمن كثيراً من أخبار عَدْوِهم وفرارِهم في شتَّى الأنحاء، والحقّ أن هذه الظاهرة وهي قوَّة العَدْوِ وسرعتهم فيه تعتبر ميزة لصعاليك هُذَيْل وذؤبانها، وقد أشار إليها عددٌ من العلماء والنُّقَّاد - كما سبق - لأنَّ هذه الظاهرة قد لفتت أنظارَهم،وشدت انتباهَهم، ولعلنا نذكر قولَ الأصمعي عن هُذَيْل: فهم أربعون شاعراً مُفْلِقاً وكلهم يعدو على رجله ليس فيهم فارس" [٣] وقول يونس بن حبيب: "ليس في هُذَيْل إلا شاعرٌ أورامٍ أو شديدُ العَدْوِ" [٤].

---

(١) الأغاني ٢١/٢٤٢ مهدٍ، أي: أهدى هدياً للكعبة، مهمل: قد أهمل إبله في مراعيها.
(٢) المرجع السابق ٢١/٢٤٢.
(٣) فحولة الشعراء للأصمعي ص٣٧.
(٤) البيان والتبيين للجاحظ ١/١٧٤.

وقد عقد البحتري في حماسته باباً" فيما قيل في الفرار على الأرجلِ"[1] يروى فيه اثنتي عشرة مقطوعة لثمانية من الشعراء، منها ثماني مقطوعات لأربعة من الصعاليك وهم أبو خِراش الهُذَليُّ،والأعلم الهُذَليُّ، وحاجز الأزديُّ،وتأبط شرّاً. أي أن ثلثي المقطوعات من شعر الصعاليك، فإذا لاحظنا أن من المقطوعات الاثنتي عشرة التي يضمها الباب أربعاً لشعراء من هُذَيْل، أي أن لصعاليك هُذَيْل الثلثَ من الباب كله،أو ما يعادل نصف عدد مقطوعات الصعاليك بصفة عامة، فإذا لاحظنا ذلك أدركنا شهرَتَهم في هذا الميدان، ثم أدركنا سرَّ ملاحظة العلماء والنُّقَّاد لهم في هذه الناحية، لأنهم عُرِفوا بها واشتهروا فيها.

فالحقّ أن صعاليكَ هُذَيْل اشتهروا بالعَدْوِ السريع، والفرار على الأَرجُل من الأعداء شهرةً واسعةً، وقد تحدَّثوا كثيراً في أشعارهم عن عَدْوِهم وفرارِهم وهروبهم دون أن يجدوا في هذه الأحاديث حَرَجاً أو خجلاً أو غَضاضَةً، وكيف يخجلون والفرار يعتبر أمراً طبيعياً بالنسبة لقومٍ عَدّائين، بل هو سلاحٌ من أسلحتهم، لأنه يضمن لهم النجاةَ من المهالك، ويعطيهم الفرصَةَ ليعيدوا الكرَّة من جديد، وليحققوا أهدافَهم الاقتصادية في السَّلْبِ والنَّهْبِ أو الثأرِ من أعدائهم ورَدِّ شَرَفِهم واعتبارهم وما إلى ذلك.

ويرى الدكتور أحمد كمال زكي أن وجود هذه الظاهرة يرجع إلى ستة أمور هي:

١ – أن المنطقةَ التي سكنتها هذه القبيلة كانت وعرةَ المسالك، كثيرةَ الجبال، تضطر الضارب فيها إلى أن يوزع سيره بين الارتقاء والهبوط ـ وفي ذلك من المران لعضلات ساقيه ما يقويهما ـ وقد قرر أن الجبالَ تمنحُ سكانَها سيقاناً حديدية تعين على تَسلُّقِ المرتفعات.

٢ – أن الذؤبان كانوا يجدون في الاختباء بشعاب الجَبَلِ نجاةً لهم، والمطيةُ تمنعهم من التسلُّلِ فيما به من ثنايا ضيقة، فضلاً عن أنها قد تُحدِثُ من الجَلَبَةِ ما يَنِمُّ عنهم ويهدي إلى مخبئهم.

٣–أن الغزاة المتلصصين لم يكن يتاح لهم الهربُ لو استخدموا في غاراتهم النوقَ،فقد تَعوقُهم عن إتمامِ الغزوة التي لا تحتاج إلى شيء كما تحتاج إلى السرعة والمباغتة.

---

(١) الحماسة للبحتري ص٤٩ ط بيروت.

٤-أنهم كانوا فقراء، فلم تكن لديهم خَيلٌ يَكِرُّون بها، وإقليمهم خاصّة لا يعرف تربيتها، نظراً لجدبه.

٥-أن مطاردة الأعداء لهم مران شديد على تقوية سيقانهم وزيادة سرعتها.

٦-أن مِنْطَقَتَهم عرفَت أصنافاً من الحيوان اشتهرت بسرعة العدو، فكان اختلاطهم بها ومطاردتهم لها يعملان على تنمية طاقة العدو فيهم(١).

والواقع أنّ أحاديثَ العَدْوِ والفرارِ ظاهرةٌ واضحةٌ كلَّ الوضوح في أخبار الهُذَليين وأشعارهم، حتى لتعدّ ميزة من ميزات أدبهم، وعندي أن إيمانهم بأن العَدْوَ والفرار من أهم الأسباب الأساسيَّة في نجاتهم من كثير من المواقف والمآزق الحرجة، وأنه السِّرُّ في نجاتهم من المهالك،وهو الذي يعطيهم الفرصةَ حتى يخططوا ويعيدوا الكرَّة من جديد لتحقيق أهدافهم، كل هذا دعاهم إلى أن يتحدثوا عن العَدْوِ والفرارِ حديثَ المُعْجَبِين بأنفسهم، لأنهم يرون أن هذه الصفةَ يَعْجِزُ عنها الكثيرُ من النَّاس.

ولذلك لا نعجب حين نراهم يتحدثون كثيراً عن عَدْوِهم وفرارهم،وحين نراهم يفخرون دائماً بسرعة العَدْوِ،ويَحرِصون على أحاديث الفرارِ في أشعارهم،فالعَدْوُ والفرارُ هما السِّرُّ في نجائهم من كثيرٍ من المخاطر والمهالك والصعوبات،وهما السِّرُّ في خلاصهم من كثيرٍ من المآزق والمواقف الحرجة التي لا يستطيع إنسان أن ينجو منها،لولا ما آتاهم الله من سرعة العَدْوِ، وقوَّة الجسد، فيهربون فارين، وينجون بأنفسهم من موت محقَّقٍ،ثم يخططون بعد ذلك ليعيدوا الكَرَّةَ من جديد إلى أن يحققوا أهدافَهم.

وهذا الأعلم يتحدَّث عن عَدْوِه حديثَ المُعْجَب بنفسه، فهو يفتخر بنفسه حين استطاع النجاةَ من أعدائه عَدْواً على قدميه، وهو بهذا الحديث كأنه يقدِّم لنا لَوناً من ألوان البطولة التي يرى أنها جديرة بالإعجاب، حيث يقول:

فلا وأبيكِ لا يَنْجُو نَجائي ... غَداةَ لَقيتُهُم بعضُ الرِّجالِ
كأنَّ مُلاءَتَيَّ على هِزَفٍّ ... يَعُنُّ مع العَشِيَّةِ للرِّئالِ
على حَتِّ البُرايَةِ زَمْخَرِيٍّ السَّ ... واعِدِ ظلَّ في شَرْيٍ طِوَالِ

(١) شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص١٨٥.

كـأنَّ جَناحَـهُ خَـفَـقَـانُ ريحٍ   يـمـانيـةٍ بريْطٍ غـيـرِ بَـالي
بذَلْتُ لهم بذي وَسُطانَ شَـدِّي   غَـداتَئِـذٍ ولَمْ أَبْذُلْ قِـتَـالي (١)

أما أبو خراش فإنه يرسم لنا في ميميته التي يتحدَّث فيها عن فراره من قائدٍ وأصحابه من الخُزاعيين(٢)، صورةً واضحةً ودقيقةً لمطارديه، وكان أحدُهم قد اقترب منه حتى صارَ كأنَّه توأم له،وكانت السهامُ تنهال حوله ولكنها تخطئه، وفيها يبيِّن كيف زاد من سرعته حين رأى أحدَ مطارديه عادياً وراء ظهره وقد بسط ذراعيه، ومد ساقيه الطويلتين، وكان حريصاً كلَّ الحرصِ على أن يدركه لأنَّ له ثأراً عنده، وأبو خراش حريص كلَّ الحرصِ على أن ينجُوَ منه لأنه شخص فاتك جريء ومجرم أثيم... وذلك حيث يقول:

فـوالله مـا رَبْداءُ أو عِلْجُ عَـانَةٍ   أَقَبُّ ومـا إنْ تَيْسُ رَبْلٍ مُـصَـمِّمُ
بأسـرَعَ منيِّ إذْ عَـرَفْتُ عَـدِيَّهُم   كـأنِّني لأولاهُمْ مِن القُـرْبِ تَوْأَمُ
وأجْـوَدَ منِّي حين كَـفَّتُ سـاعِـيـاً   وأخْطَأَني خَلْفَ الثَّنيـةِ أَسْـهُمُ
أُوائلُ بـالحَـثِّ الذَّلـيق وحَـثَّـني   لدَى المَتْنِ مشبُوحُ الذِّراعَيْنِ خَلْجَمُ
تَذَكَّـرَ ذَحْـلاً عندنا وهو فـاتِكٌ   من القـومِ يَعْـرُوهُ اجْـتِـراءٌ ومـأثَمُ (٣)

---

(١) حماسة البحتري ص٥١ وكتاب شرح أشعار الهذليين ١ / ٣٢١. الهِزَفّ: الظّليم السريع، يَعُنّ: يَعْرِض – وهي لغة هُذَيل، وغيرهم يَعِنّ بكسر العين، الرئال: فِراخ النعام، الحَتّ: السريع، البُراية، أي: عند البُراية، أي: عند بقيته، برايته: التي تبقى له من جسمه وعدوه، زَمْخَرَي: غليظ طويل، شَرْي: حنظل، أو شجر تتخذ منه القِسِيّ، اليمانية: الجَنُوب، الريط: ملاحف غير مُلَفَّقَة، وَسُطان: موضع، وقد ورد البيتُ الثالث في التهذيب ٧ / ٦٦٩ بتحقيق الدكتور عبد السلام سرحان، كما هنا، وكذلك في مقاييس اللغة لابن فارس ١ / ٢٢٣، ٢ / ٢٨ وفي بعض نسخ التهذيب «حث، طل».

(٢) انظر تفصيل القصة في كتاب شرح أشعار الهذليين ٣ / ١٢١٦ والأغاني ٢١ / ٢٣١.

(٣) الأغاني ٢١ / ٢٣٢ رَبْداء: نعامةٌ سوداء إلى الغُبرة، والعلج: الغليظ، والعانة: جماعةُ حُمُرِ الوحش والمراد بعلج العانة: حمارها، والأقَبُّ: الخميص البطن، والربل: نبت، العَدِي: جماعة القوم يعدُون للقتال، كَفَّتُّ: أسرعْتُ في العدْوِ، أوائلُ: أطلبُ النجاةَ والموئل وأبادر، الشد: الجري، الذليق: الشديد، ولَدى المتن: يريد خلف ظهره، والمشبوح الذراعين: العريض الذراعين، والخَلْجَم: الطويل.

ثم يصرح أبو خراش بأنّ سرعةَ عَدْوِه هي التي أنْجَتْه من مَوْتٍ مُحقَّق فلولا ذلك لآمَتِ امرأتُه ويتم ابنُه خراش... يقول:

تقـولُ ابْنَتي لمّا رأتْني عَـشِـيَّـةً … سَلِمْتَ وَما إنْ كِدْتَ بالأَمْسِ تَسْلَمُ
ولولاَ دِراكُ الشّـدِّ قَـاظَتْ حليلَتِي … تَخَـيَّـرُ من خُطَّابِهـا وَهْيَ أَيِّمُ
فَتَقْعُدُ أو تَرْضَى مكانِي خليفَةً … وكـادَ خِـراشُ يومَ ذلكَ يَيْتَمُ (١)

وفي شِعرِ الأعلمِ قصيدةٌ طويلةٌ يتحدَّث فيها عن فراره مع صاحبٍ له في مغامرة لهما مع بني عَبْد بن عديّ بن الدِّيل من كنانة(٢)، وكيف أنَّهم طردوه فأعجزَهم. وهو يبدأ قصيدتَه مباشرةً بالحديث عن ذلك المأزق الحرج الذي وجدَ نفسَه فيه حين رأى القومَ يطاردونه هو وصاحبه، وقد اقتربوا منهما حتى لم يعد بينهما وبينهم إلا أقل من رميةِ سهم،ونراه يصوِّر الفزعَ الذي انتابَه فشَلَّ مقدرته على الرمي، ولكنه مع ذلك يَحُثُّ صاحبه على العدْوِ حتى يَنْجُوَا معاً، فيقول:

لمّا رَأَيْتُ القـومِ بالعَلْيَـاءِ دونَ قِـدَى المُناصِبْ
وفَـرِيتُ من فَـزَعٍ فـلا أرْمِي ولا وَدَّعْتُ صـاحِبْ
يَغْرُونَ صاحِبَهُمْ بنا جَهْداً وأُغْري غيرَ كاذِبْ
أُغْـرِي أبا وَهْبٍ لِيُعْجِزَهُمْ ومَـدُّوا بـالحلائبْ(٣)

ثم يأخذ في وصفِ تلك الجماعات التي تطاردهما، ويصف سرعةَ أحد مطاردية، ثم ينتقلُ إلى الاعتذار عن فراره بأنه خشي أن يُقْتَلَ بسيوفهم فيصير طعاماً للذئاب والضباع والثعالب وغيرها من الطيور الجارحة، وذلك حيث يقول:

وخَشِيتُ وَقْعَ ضَرِيبَةٍ قَدْ جُرِّبَتْ كُلَّ التَّجارِبْ
فأكونَ صَيْدَهُمُ بها للذئبِ والضَّبْعِ السَّواغِبْ.

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣ / ١٢٢٠ والأغاني ٢١ / ٢٣٣.
(٢) انظر تفصيل القصة في كتاب شرح أشعار الهذليين ١ / ٣١١.
(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين ١ / ٣١٢. القدَى: القدر، المناصب: الرامي يرميك وترميه، فريت: بطرت، فلم أقدر على الرمي، ولا ودعت صاحب أي لم أسلم عليه، المُحْلِب: المعين والحلائب: جماعات بعضهم في أثر بعض، مدّوا: ذهبوا، يعجزهم: يغلبهم.

جَـزْراً ولـلطَّيْــرِ المُرِبَّةِ والذئـابِ وللثـعَّــالِـبْ
وتَجُـرُّ مُـجْـرِيَةٌ لهـا لَحْـمي إلى أَجْـرٍ حَـواشِـبْ[١]

ثم يمضي في وصفِ هذه الضباع وجرائها، فيشبه جلودَها بثياب الراهب السُّود كما يشبِّه آذانَها بالمغارف لأنَّها قصيرةٌ وعريضةٌ،ثم يذكر أنها تنتزع جلدَ المرء انتزاعاً شديداً، وهو بهذه الصورة المفزعة يريد أن يبيّن لنا مصيرَه لو قتل، يقول:

سُـودٍ سَـحَـاليلٍ كـأنَّ جُلودَهُنَّ ثيـابُ راهِبْ
آذانُهُـنَّ إذا احْـتَـضَــرْنَ فَـرِيسَــةً مِـثْلُ المَذَانِبْ
يَنْزِعْنَ جِلْدَ المرءِ نَزْعَ القَيْـنِ أَخْـلاَقَ المَذاهِبْ[٢]

ثم يعودُ لذكرِ عَدْوِه في شدَّة الحرِّ،ولكنه لا يبالي بعد ذلك،فقد اقترب من منطقة الأمان،ولاحت لعينية منازلُ السلامة،ونراه هنا فقط يذكر أهلَه وفقرَهم وأولادَه الصغار وحاجتَهم،ثم يشبِّه أولادَه الصغار بالجَحاش من أولاد الحمير، حيث يقول:

حتَّى إذا انْتَـصَفَ النَّهَـارُ وقُلْتُ يَوْمٌ حَقٌّ ذائِبْ
رَفَّــعْتُ عَــيْنَيَّ الحِــجَــازَ إلى أُناسٍ بالمَنَاقِبْ
وذكـرتُ أهْلِي بالعراءِ وحـاجَةَ الشُّعْثِ التَّوالِبْ
المُصْــرِمينَ من التِّـلادِ اللاَّمِــحينَ إلى الأقـارِبْ
وبَجـانِبَيْ نَعْـمَــانَ قُلتُ أَلَنْ تُبَلِّغَني مَـآرِبْ[٣]

أما عمرو ذو الكلب فهو مُعْجَبٌ بنفسه جداً،فيذكر أنه لا يعدُو عَدْوَهُ أحدٌ فليس أحدٌ يمشي على قدمين يجري جريه،يقول في أرجوزة له:

---

(١) الضريبة: المراد بها السيف، ضُبْعٌ: جمع ضَبُع، سواغب: جياع، المُربة: المقيمة على لحم أبداً، مَجْرِية: ضَبُع ذاتُ جراء، وأجر: جمع جرو، وحواشب: منتفخات البطون.

(٢) السحاليل: جمه سحْلال، وهي العظامُ البطونِ، المذانب: المغارف، المذاهب: أخِلَّة السيوف وهي بطائنُ الجفون المُذْهَبة، القَيْن: الحداد.

(٣) ذائب: شديد الحر، المناقب: أماكن، يقول: بلغت هذه الأماكن نصف النهار، العراء: الصحراء، الشعث: يعني ولده، التوالب: الجحاش، المُصْرِم: المُقِلُّ الذي لا مالَ له، التلاد: المالُ القديم الموروث عن الأجداد، نَعمان: من بلاد هُذَيل، مآرب: حوائج.

فَجِئْتُ لا يَشْتَدُّ شَدِّي ذُو قَدَمْ

وفِي الشِّمَالِ سَمْحَةٌ مِنَ النَّشِمْ(١)

وكما تحدث الصعاليكُ العداؤون عن شدّة عَدْوِهم تحدَّثوا عن شدَّة عدْوِ رفاقهم،فهذا أبو خِراش يرسم صورةً رائعةً لجماعة من العدائين يحرص كلٌّ منهم على ألا يتخلَّفَ عن رفاقِه حتى لا يُفْتَضَح بينهم، وكانوا قد خرجوا للغزو في ليلة مُمطرَة وقد ابتلَّتْ أقدامُهم،وكيف أنهم كانوا يكسرون الشجرَ بأرجلهم فَيَلْتَفُّ تحتها أكواماً كأنها أوساط الإبل السود،ثم يصف ما أصابَ نعليه مِن شدَّة العَدْوِ بأنهما ممزقتان كأنهما أشلاء السُّمانَى، يقول:

وليلةِ دَجْنٍ مِن جُمادَى سَرَيْتُها ... إذا ما اسْتَهلَّتْ وَهْيَ ساجِيَةٌ تَهْمِي

وشَوْطِ فِضَاحٍ قد شَهِدْتُ مُشَايحاً ... لأُدْرِكَ ذَحْلاً أوْ أُشِيفَ على غُنْمِ

إذا ابْتَلَّتِ الأقدامُ والتفَّ تَحْتَها ... غُثَاءٌ كأَجْوازِ المُقَرَّنَةِ الدُّهْمِ

ونَعْلٍ كأَشْلاءِ السُّمانَى نَبَذْتُها ... خِلافَ نَدىً مِن آخِرِ الليلِ أَوْ رِهَمِ (٢)

ونراهم كذلك يتحدَّثون عن شدَّة عَدْوِ أعدائهم، ويرسم الأعلمُ في بائيته السابقة التي يتحدَّث فيها عن فراره هو وصاحب له من بعض أعدائهما صورةً صادقةً لُطارَدَتِهم لهما،فيصف فيها خروجَهم خَلفَهما،وكيف كانوا يُغْرون أسْرَعَهُم ليدرِكَهما، بينما هو يغري صاحبَه ليفوتَهم،ثم يصف تلك الجماعات التي تطاردُهم والتي يجيء بعضُها في إثر بعض، كما تدفع الرياح السحبَ فتُجَلْجِلُ بالرعود، ثم يصف أحدَ مطارديه في سرعته ويشبِّهه بأنه ينطلق خَلفَه كأنه حمارُ وحشٍ ضامرٍ يُسرع ليردَ الماءَ وذلك حيث يقول:

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٥٧٦ سمحة: قوس سهلة ليست بكزَّة، والنَّشَم: شجر.

(٢) ديوان الهذليين ٢ / ١٣٠. الدّجْنُ: إلباسُ الغَيْم، تَهْمِي: تسيل، شَوْطُ فِضاحٍ: إذا سبقَ فيه رجلٌ افتضَح، والمشايح: الجادّ الحاملُ في كلام هُذَيْل، أُشيف على غُنْم: أُشْرِف على غَنيمة، كأجواز، أي: كأوساط الدُّهْم من الإبل، المقرَّنة: التي تُقرَن بالأخرى، نَعْلٌ كأشلاء السُّمانى، أي: تقطعت فشبهها بِسُمانَى قد أكلت، الرِّهْم: المطر الضعيف الساكن اللين والواحد: رِهْمَة.

يُغْرُونَ صاحِبَهُمْ بِنا جَهْداً وأُغْرِي غَيْرَ كاذِبْ
أُغْرِي أَبا وَهْبٍ لِيُعْجِزَهُمْ ومَدُّو بالحلائِبْ
مَدَّ المُجَلْجِلِ ذي العَماءِ إذا يُراحُ مِنَ الجَنائِبْ
يُغْرَى جَذِيمَةُ والرِّداءُ كأنَّهُ بأَقَبَّ قارِبْ (١)

ولعلّ من أطرف الأشياء أَنْ يحدِّثَنا الأعلم عن كراهيته لمُطارده، لا لشيء إلا لأنه عدّاء سريع، لا يأْلو جهداً في مطاردته، فحين رأى أعداءه يغرون جَذِيمَةَ العداء أسرعَ فلم يلحق به،وجذيمة هو الرجل الذي عدا في أثره أثناء فرته من بني عَبْد بن عديٍّ بن الدِّيل من كنانة، ونراه يتحدث عن هذه الفرَّة في موضعٍ آخر فيقول:

كَرِهْتُ جَذِيمَةَ العَبْدِيَّ لَمَّا رأَيْتُ المَرْءَ يَجْهَدُ غَيْرَ آلِي
وأَحْسِبُ عُرْفُطَ الزَّوْراءِ يؤْدِي عَلَيَّ بَوشْكِ رَجْعٍ واسْتِلالِ
فلا وأبيكِ لا يَنْجُو نَجائي غَداةَ لَقِيتُهُمْ بعضُ الرِّجالِ (٢)

ولكن أبا خِراش يضفي على عَدْوِه وفراره لوناً من المذهبية،ويرسمه خطَّةً موضوعة فهو يفرّ لا لأنه جبان،بل إنه لمقاتل شجاع، ولكنه يرى أحياناً أنّ قتاله لا يجديه شيئاً إلا أن يوردَه مواردَ الهلاك، وهو مع ذلك لا يكفّ عن القتال، إلا إذا لم يجد لنفسه مجالاً فيه، ففي تلك الحالة يَفِرُّ حتى ينجوَ ثم يعاود الكَرَّةَ من جديد، يقول:

فإِنْ تَزْعُمِي أَنِّي جَبُنْتُ فإنَّني أَفِرُّ وأَرْمِي مَرَّةً كلَّ ذلكِ
أُقاتِلُ حتى لا أرى لي مُقاتَلاً وأَنْجُو إذا ما خِفْتُ بعضَ المَهالِكِ (٣)

---

(١) كتاب شرح أشعارَ الهذليين ١/٣١٢. وحماسة البحتري ص٥٠. يعجزهم: يغلبهم، مَدُّوا: ذهبوا، الحلائب: جماعات بعضهم في إثر بعض، العماء: السحاب الرقيق، مُجَلْجِل: سحاب به رعد وصواعق، يراح: تصيبه الريح، أَقَبّ: حمارُ وحش ضامر البطن، القارب: طالب الماء ليلاً، وأبو وهب: هو صاحبه، وأما جَذِيمة فهو عدوه كما هو ظاهر.

(٢) المرجع السابق ١/٣١٨. العرفط: شجر له شوك، الزوراء: أرض، يؤدي: يعين، الوشك: السرعة.

(٣) ديوان الهذليين ٢/١٦٩، شرح أشعار الهذليين ٣/١٢٤١.

ويحرِصُ صعاليكُ هُذَيْل العدّاؤون على تسجيل ظاهرةٍ طريفة في حديثهم على العَدْوِ، وهي حركةُ ثيابِهم عند عَدْوِهم، والتحدّث عنها ثم ما تفعله الرياحُ بها، وهي ظاهرةٌ طريفةٌ لما فيها من اليسارة والصدق، ولعلّ من أطرف الأشياء في هذه الظاهرةِ أنَّهم أكثر ما يذكرون ثيابَهم يذكرون أنها باليةٌ ومُمزَّقَةٌ.

فهذا أبو خِراش يذكر أن ثوبَه الخَلَق البالي يهتزّ في أثناء عَدْوِه كأنه ينتفضُ من حُمَّى تلازمه، فنراه يقول:

فَعَدَّيْتُ شيئاً والدَّرِيسُ كأنَّما ... يُزَعْزِعُهُ وِرْدٌ من المُومِ مُرْدِمُ (١)

ونراه أحياناً يضيق بثيابه لأنها تعوقُه عن العدْوِ فيطرحها عنه، ويقول:

وَرَفعْتُ ساقاً لا يُخَافُ عِثارُهَا ... وطَرَحْتُ عنّي بالعراء ثِيابي (٢)

ونراه في قصيدةٍ أخرى يصفُ جماعةً من العدّائين وقد ألقوا ثيابَهم عنهم من شدّة عدوهم، فيقول:

وَعادِيَةٍ تُلْقِي الثِّيابَ وَزَعْتُها ... كرِجْلِ الجرادِ يَنْتَحِي شَرَفَ الحَزْمِ (٣)

وأما صخر الغيّ فنراه يصف صاحباً له بأنه يعدُو مسرعاً فيرفع باطنُ ركبته ثَوْبَه الخَلَق، حيث يقول:

تَرَى عَدْوَهُ صُبْحَ إقْوائِهِ ... إذا رَفَعَ المَأْبِضَانِ الحَشِيفَا

كعَدْوِ أَقَبَّ رَباعٍ تَرَى ... بفَائِلِه ونَسَاهُ نُسُوفَا (٤)

وكثيراً ما تحدَّث الصعاليكُ العداؤون عن شدَّة عَدْوِهم مقرونة بموازنة بينهم وبين أنواع الطير كالعُقاب مثلاً، أو ببعض حيوان الصحراء المعروف بسرعة العَدْوِ كحمار الوحش والظبي وغير ذلك مما يشاهدونه أثناء انتشارهم هنا وهناك بين أفناء البادية.

---

(١) المرجع السابق ١٤٤/٢. عَدَّيْتُ: صُرِفْتُ عنهم، وهم أصحابه، والدَّرِيسُ: الثوب الخَلَقُ، المُرْدِم: الملازم، الموم: الحُمّى.

(٢) المرجع نفسه ١٦٨/٢ والعراء: الصحراء.

(٣) المرجع نفسه ١٣٢/٢. والعادية: الحاملة، تلقي الثياب، أي: من شدة عدوهم تقع عمائمهم ومعاطفهم وأرديتهم، وزعتها: كففتها، ينتحي: يقصد له، شرف الحزم: المكان الغليظ.

(٤) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣٠١/١ والمأبضان: باطنُ الرُّكْبَة، وباطنُ المِرْفَق، الحشيف: ثَوْبٌ خَلَقٌ، الفائل: عِرْق يخرج مِن الوَرِك فيَتَبَطَّنُ الفَخِذَ إلى الساق، نُسوف: آثارُ عَضٍّ، النسا: عِرق في الفخذ.

وهذا أبو خِراش يتحدَّث عن عَدْوٍ له،ويشبِّه نفسَه بعُقاب في شدَّة سرعته، فيقول كأنني ألبستُ سلاحي من سرعتي عقاباً... يقول:

كَــأنِّي إذْ عَــدَوْا ضَــمَّنْتُ بَـزِّي | من العِــقْــبَــانِ خَــائِتَــةً طَلُوبَا
جَـــرِيمَةَ نـاهِـضٍ في رأسِ نيـقٍ | تَرَى لعظامِ مـا جَـمَـعَت صَلِيبَـا
رأتْ قَنَصـاً على فَـوْتٍ فَـضَـمَّتْ | إلى حَـيْـزُومِـهَـا رِيشـاً رَطِيبَـا (١)

وهذا صخرُ الغيّ يصفُ صاحباً له بشدَّة العَدْوِ،ويشبِّهه بحمارِ وَحشٍ ضامرٍ تعضُّه الحُمُر فيفرُّ هارباً منها، يقول:

مَــعِي صَــاحِبٌ دَاجِنٌ بـالغَــزا | ةِ لم يَكُ في القومِ وَغْلاً ضَعِيفَا
تَـرَى عَـــدْوَهُ صُــبْحَ إقْــوائِهِ | إذا رَفَع المَأْبِضَـانِ الحَـشِـيـفَـا
كَـــعَـــدْوِ أَقَبَّ رَبَاعٍ تَـرَى | بفَــائِلِهِ ونَسَـاهُ نُسُـوفَـا (٢)

وأما الأعلمُ فيذكر أن رداءَ جَذيمة لم يكن إلا فوق حمار وحشيّ يعدو مسرعاً إلى الماء ... أي : كأن رداء جذيمة يعدو به حمار وحشي يطلب الماء، والمقصود تشبيه جذيمة في سرعته بحمار وحشي يعدو مسرعاً نحو الماء.... يقول:

يُعْرَى جَذِيمَةُ والرِّداءُ كأنَّهُ بأَقَبَّ قَارِبْ(٣)

وأما أبو خِراش فيقسم أنه أسرعُ في العَدْوِ من النعامةِ وحمار الوحش، وهو لا يقف عند النعامة أو حمار الوحش طويلاً، لأنه مشغول بحيوان آخر، أسرع منهما وهو الظبي فيذكر أن الصيادين حين يخرجون لصيده، وقد بَثُّوا حبالَهم حواليه،ينجو ويَفْلِتُ منهم ، فيرميه الصيادون بسهامهم، ويطلقون كلابَهم خَلْفَه. ولكنه يفوتها، وأنه مع ذلك يظلّ مذعوراً يصغي مستمعاً إلى ناحيتهم، فإذا ما سمع صوت ذباب

(١) ديوان الهذليين ٢ /١٣٣ . بَزِّي: سلاحي، خائتَةً: مُنْقَضَّة، طَلُوبا تطلبُ الصيدَ، جريمة ناهضٍ، أي: كاسبةَ فَرْخٍ، النِّيقُ: الشِّمْراخ من شماريخ الجبل، الصليب: الوَدَك، قَنصاً: صيداً، على فوت: على سَبْق، الرطيب: الناعم، الحيزوم: الصدر.
(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ١ /٣٠١ داجن: مُعَاوِدٌ مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ ومتعود للغزو، وَغْلاً: نَذْلاً، المأبضان: باطنُ الركبة وباطنِ المرفَق، الحشيف: ثوب خَلَق، الفائل: عرق يخرج من الورك فيتبطَّنُ الفَخذَ إلى الساق، نُسُوف: آثار عضٍّ، النَّسا: عرق في الفَخذ.
(٣) المرجع السابق ١ /٣١٣. أقب: حمار وحش ضامر البطن، القارب: طالب الماء ليلاً.

يطوف حَوْلَهُ ذُعرَ من ذلك،وخُيِّل إليه أنه صوتُ سهام الرماة، فينطلق مسرعاً. والمهم أنَّ أبا خِراشٍ يقسم أنه أسرعُ من هذه الحيوانات كلِّها ، فيقول:

فـوالله مـا رَبْداءُ أو عِلْجُ عـانةٍ ... أقَبُّ ومـا إنْ تَيْسُ رَبْلٍ مـصمِّمُ

وبُثَّتْ حِـبَـالٌ في مَـرادٍ يُرودُهُ ... فـأخْطأهُ منهـا كِـفـافُ مُـخَـزَّمُ

يَطيحُ إذا الشَّعْراءُ صَاتَتْ بِجَنْبِه ... كما صاحَ قِدْحُ المُسْتَفيضِ المُوَشَّمُ

كأنَّ الـمُلاءَ المَحْضَ خَلْفَ ذراعِه ... صُـراحِـيُّـهُ والآخَنِيُّ المُتَـحَّمُ

تراهُ وقـد فـاتَ الرُّمَـاةَ كـأنَّهُ ... أمامَ الكلابِ مُصْغِيَ الخَدِّ أَصْلَمُ

بأجْـوَدَ مِنِّي يَوْمَ كَـفَّتٌ عـادياً ... وأخْطَأَني خَلْفَ الثَّنِيَّـةِ أَسْـهُمُ (١)

وتفيض مصادر الأدب العربي بأحاديث عَدْوِهم، وأخبارِ سرعتهم ،وتبالغ فيها مبالغةً تبدو أحياناً غير مقبولة، ففي أخبار أبي خراش أنه دخل مكَّةَ، وللوليد بن المغيرة المخزومي فرَسَان يريد أن يرسلَهما في الحلبة، فقال للوليد: ما تجعل لي إن سبقتهما ؟ قال: إن فعلتَ فهما لك فأُرسلا، وعدا بينهما فسبقَهما فأخذهما(٢).

ويذكر صاحب الأغاني أنه كان يعدُو فيسبق الخيلَ في غارات قومه وحروبهم(٣).

وعلى ما في أحاديث هذا العَدْوِ في أخبارِ الصعاليك الهُذليين وشِعْرِهم من مبالغاتٍ لا يسع المرء إلا أن يقف عندها متسائلاً: أيمكن أنْ يكون هذا صحيحاً؟

يقول الدكتور أحمد كمال زكي: "والحق أن الباحث لا بد أن يؤمن بطرافة هذه الأخبار بغض النظر عن صحتها جميعاً، ولا نظنّ أن أحداً يعمدُ إلى الزعم بأن فيها من

(١) ديوان الهذليين ٢/ ١٤٥، شرح أشعار الهذليين ٣/ ١٢١٨، والأغاني ٢١/ ٢٣٢ – الربداء: النعامة السوداء إلى الغبرة، وعِلْج: حمارٌ غليظ، أقبّ: خميص البطن، عانة: قطيع من حُمُر الوحش، الربل: نبت ينبت في أول الشتاء، وقوله في مرادٍ يروده، أي: في مسارح يسرح فيها، الكفاف: الحبال يصيدون بها الظباء تجعل كالطوق، المخزم: المنظم، يطيح: يسرح، الشَّعْراء: ذبابٌ يلسع، المستفيض: الذي يفيض بالقداح يضرب بها، الموشم: الذي به علامات، صراحيُّهُ: أبيضُهُ، الآخنيُّ: نوع من الثياب، المُتَحَّمُ: الذي به خطوط حُمْر وخُضْر، الأصلم: المستأصل الأذن، الكفت: الانقباض والسرعة.

(٢) الأغاني ٢١/ ٢٣٣.

(٣) المرجع السابق ٢١/ ٢٣٠.

المبالغة ما يقبله العقل، فقد ظهر أن عوامل مادية ومعنوية كانت تربي فيهم هذه الخاصّة وتعمل على نمائها ورعايتها. ولسنا على أي حالٍ نصطنع أمراً لم يكن، ولا نرضى أن نعترف بشيء لا يسنده دليل، فإن عنَّ لنا أن نبحثَ عنه ظفرنا به في الشِّعْر،في شعْر هؤلاء الذؤبان الذين كانوا يرون أنَّ من مقومات شخصيتهم سرعةَ الفَرِّ وإجادة العَدْوِ"(١).

وعندي أن هذه المسألة ـ على كلِّ حال ـ تصوِّر ظاهرةً لا شكَّ في حقيقتها وهي أنَّ صعاليك هُذَيْل وذؤبانها كانوا يمتازون بسرعةٍ في العَدْوِ خارقةٍ للعادة، وأنّه مهما يكن هناك من مبالغةٍ في أحاديث عَدْوِهم، وأخبار سرعتهم فإنَّ ذلك يصوِّر حقيقةً واقعةً لا شكَّ فيها، ثم إنها ـ على ما يبدو فيها من غرابة ـ ليست مستحيلة لا سيما في الحياة الجاهلية،وعند أهلِ البادية بوجه خاصٍّ.

والواقع أن البيئةَ كانت تفرض عليهم بعضَ الصفات التي تبدو مستحيلةً عندنا اليوم في القرن العشرين،فكلّ عَصْرٍ له ظروفُه الخاصّة التي تلائمُه وتناسبُهُ في حين أنها قد لا تلائم أو تناسب غيره من العصور. أضف إلى ذلك أنّ هذه الصفة كانت خاصَّة بقوم من الصعاليك والذؤبان العدّائين،الذين جعلُوا جُلَّ همهم في الغارات والغزوات للسَّلْبِ والنَّهْب،وما يستلزم ذلك ويترتب عليه من الهجوم والمباغتة والفرارِ والعَدْوِ وما إلى ذلك.

على أنّ هذه الأحاديث والأخبار التي تصفُ عَدْوَهم وسرعَتَهم قد سجَّلها الرواةُ بما قد يبدو فيها من مبالغات، واستقرت هذه الظاهرة في أذهان الناس، فضربوا بها الأمثال. كما أن هذه الظاهرة قد لفتت أنظارَ العلماء والنُّقَّاد ـ كما سبق ـ فقد قال الأصمعي في هذيل "فهم أربعون شاعراً مُفْلقاً، وكلهم يَعْدُو على رِجْله ليس فيهم فارس(٢)، وقال يونس بن حبيب: ليس في هُذَيْل إلا شاعرٌ أو رامٍ أو شديدُ العَدْوِ(٣).

---

(١) شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص١٨٦.

(٢) فحولة الشعراء للأصمعي ص٣٧.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ١ / ١٧٤.

أحاديث السلاح:

وتحدَّث صعاليكُ هُذَيْل عن أسلحَتِهم بمختلف أنواعها، فقد كانوا يتعمدون عليها إلى جانب قُوَّةِ قلوبهم وقوَّةِ أرجُلِهم وسرعةِ عَدْوِهم، ثم إن ظروفَهم كانت تحتِّم عليهم أن يصطحبوا السلاحَ دائماً فكان لا يمكن لأحدهم أن يخرجَ أعزل، وبعبارة أخرى كانوا لا يقضون أوقاتَهم بغير سلاح، تلك هي ظروفُهم، فهم قوم محاربون: "يجيدون حَمْلَ السلاح واستعمالَه، في قلوبهم بأسٌ وفي أنفسهم شهامةٌ، تحدَّوا المجتمعَ وعاشوا بقوَّتهم لأنهم كانوا يؤمنون بها فقط. يكرهون الإملاق والملق فكانوا يصبرون على الجوع وتأبَى نفوسُهُم العاليةُ الهوانَ لهم"(١).

ولذلك لا نعجبُ حين نراهُم يكثرون الحديثَ عن السلاحِ في أشعارِهم، ولنذكر من ذلك بعضَ الأمثلة التي تفيض بها أشعارهم.

فهذا صَخرُ الغَيّ يعدِّدُ بعضَ سلاحه في قصيدةٍ طويلةٍ ويصفه، ثم يصرح بأنَّه حريصٌ على سلاحِه لا يُفَرِّط فيه، لئلا يطمعَ فيه أحدٌ من أولئك الذين يتوعَّدونه ويتربَّصون به، من أعدائه الذين طالما غزاهم وأغار عليهم، كذلك يحرص على أن يرسم له صورة دقيقة، فيصفه بأنه ماضٍ، ومن حديد جيد، وشفرتاه رقيقتان، ثم هو سيفٌ مُنْتَقَى معدوم النظير، ولا تَقوَى أشدُّ العظام على ضَرْبَتِه، بل تتفتت وتُسْحَق من قوَّته وذلك حيث يقول:

إنِّي سَيَنْهَى عَنِّي وَعِيدَهُمُ	بِيضٌ رِهَابٌ ومُجْنَأٌ أُجُدُ
وصارِمٌ أُخْلِصَتْ خَشِيبَتُهُ	أَبْيَضُ مَهْوٌ في مَتْنِه رُبَدُ
فَلَوْتُ عنهُ سُيوفَ أَرْيَحَ إذْ	باءَ بِكَفِّي ولَمْ أَكَدْ أَجِدُ
فَهْوَ حُسَامٌ تُتِرُّ ضَرْبَتُهُ	سَاقَ المُذَكِّي فَعَظْمُها قِصَدُ
وسَمْحَةٌ مِن قِسِيِّ زَارَةَصَفْـ	ـراءُ هَتُوفٌ عِدادُها غَرِدُ
كأنَّ إرْنَانَها إذا رُدِمَتْ	هَزْمُ بُغَاةٍ في إثْرِ ما فَقَدُوا (٢)

---

(١) شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص١٨٤.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٥٦. رِهابٌ: رقاقٌ، مُجْنأ: تُرسٌ، أجدٌ: شديدة، صارم: سيف ماض، خَشِيبَتُه: طبيعته، مَهْو: رقيق الشفرتين، رُبَدٌ: فيه لمعان، أَرْيَح: قرية بالشام =

أما الأعلم فإنَّهُ مُعتدٌّ بسلاحه جداً ويُزْهَى به لدرجة أنه يُنذِرُ خصومَه بأنَّهم إذا لاقوه ومعه سلاحه فإن موتهم مؤكد، يقول:

مـتى مـا تَلْقَني ومَـعي سِـلاحِي تُـلاقِ الموْتَ لـيسَ لَهُ عَـديـلُ [1]

ويصف صعاليكُ هُذَيْل أسلحتَهم المختلفة وَصْفَ المفتون بها، الذي يهتم بكلِّ جُزْء من أجزائها، ويحرصون على أن يسجِّلوا في حديثهم عنها كلَّ ما يختصُّ بها، كما فعل عَمرو ذو الكلب الذي قرَّر أن سيفَه وشاح لصدره، حيث يقول:

تَـمَـنَّـاني وأَبيَضَ مَشْـرَفِـيّـاً وِشَاحَ الصَّدْرِ أُخْلِصَ بالصِّقَالِ [2]

ونراهم يذكرون القَوْسَ،ويهتمون بصوتها،ويصفونه،وهو صوتٌ يفتنهم فتنةً شديدةً تبدو في الإلحاح الشديد على تسجيله في أشعارهم،ولا عجبَ في ذلك فإنّ صوتَ القوسِ إيذانٌ ببدء عملهم الذي وهبوا حياتَهم من أجله،فصوتُه نقطةٌ حاسمة في حياتهم،وهذا صخرُ الغيّ يشبه صوتَ القوس بأنه أصواتُ قومٍ يتهامسون وهم يبحثون عن شيء فقدوه، يقول:

وسَـمْـحَـةٌ مِنْ قِـسِيٍّ زارَةَ صَـفْـ ـراءُ هَتُـوفٌ عِـدَادُهَا غَـرِدُ
كـأنَّ إرْنَـانَهَـا إذا رُدِمَتْ هَزْمُ بُغَـاةٍ في إثْرِ مـا فَـقَـدُوا [3]

ولكنه في سَمْعِ عمرِو ذي الكلب عَجيجٌ،كأنَّه حنينُ ناقة مُسنَّةٍ تسبقها إبل شابةٌ فَتِيَّةٌ، فهي عاجزة عن مسايرتها،وهي لهذا دائمةُ الحنينِ، يقول في أرجوزة له:

وفي الشِّمَالِ سَـمْـحَـةٌ مِنَ النَّشَمْ
صَـفْـرَاءُ مِنْ أَقْـواسِ شَـيْـبَانَ القُـدُمْ

= يقال لها أريحا وهي بفلسطين، باء بكَفّي: صار بكفي وصارت كفي مباءةً، أي: مأوى، تُترّ: تُطِنّ، المُذكِّي: المُسِنُّ، قصَدٌ: كِسَرٌ، سمحة: سهلة، زارة: حي من أزْد السَّراة، هَتوف: مُصَوِّتَة، عِدادُها: صوتها، غَرِد: شديد الصوت، إرنانها: صوتها، رُدِمَت: أُنْبِضَ فيها، هَزْمٌ: صَوْتٌ.

(١) ديوان الهذليين ٢/ ٨٥.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢/ ٥٦٨ – أبيض: سيف، مشرفي: منسوب إلى المشارف وهي قُرَى للعرب تدنو من الريف، أي: أن سيفي مني بمكان وشاحي.

(٣) المرجع السابق ١/ ٢٥٨ وسبق شرح المفردات قبل قليل.

تَعِجُّ في الكَفِّ إذا الرَّامي اعْتَزَمْ
تَرنُّمَ الشَّارِفِ في أُخْرَى النَّعَمْ(١)

ثم التُّرْسُ فإن له نصيباً وافراً في أشعارهم، فهذا عَمرو ذو الكلب يصفه بعدَّة صفاتٍ في بيتٍ واحد، فترسه أسمر، مُقَبَّبٌ، ومصنوعٌ من جلد ثورٍ، وأصمٌّ لا خلل فيه، وهو يقلِّلُ ظَبةَ النِّصالِ، أي إذا أصابته النِّصالُ فإنها ترتدّ عنه، وقد تكسرت ظُباتها، يقول:

وأَسْمَرَ مُجنأً من جِلْدِ ثَوْرٍ ... أَصَمَّ مُفَلِّلاً ظُبَةَ النِّصَالِ(٢)

وأما أبو خِراش فقد وصفَ تُرْسَه بأنه موثق، ومصنوع من جلد ثور، ثم يستطرد في الحديث عن الثور، وكيف أنه نشأ في وادٍ خصْب، حتَّى شَبَّ قوياً، يطعن الثيرانَ المتصدية له، فترتد عنه داميةً من طعناته، ثم يذكر أنَّ تُرْسَه ضخمٌ كأنه خَيْمَةٌ كبيرة، يقول:

أَواقِدُ لا آلوكَ إلا مُهَنَّداً ... وَجِلْدَ أَبي عِجْلٍ وَثِيقَ القَبائِلِ
غَذَاهُ من السِّرَّيْنِ أوْ بَطْنِ حَلْيَةٍ ... فُرُوعُ الأَبَاءِ في عَمِيمِ السَّوائِلِ
مشَبٍّ إذا الثِّيرانُ صَدَّتْ طَرِيقَهُ ... تَصَدَّعْنَ عنهُ دَامِياتِ الشَّواكِلِ
يَظَلُّ على البَرْزِ اليَفَاعِ كأنَّهُ ... طِرافٌ رَسَتْ أوْتَادُهُ عِنْدَ نازِلِ (٣)

وأحاديثُ الصعاليك عن الأسلحة تذكرنا بأحاديثهم عن التَّوَعُّد والتهديد، وهي ظاهرةٌ واضحةٌ في أشعارهم، فحياتُهم كانت سلسلةً متصلةً من الغاراتِ

---

(١) المرجع نفسه (٢ / ٥٧٦) سَمْحَةٌ: قوس سهلة ليست بَكزَّة، النَّشَم: شجر، شيبان: رجل كان يعمل القِسيَّ، تَعِجّ: تُصَوِّتُ، اعتزَمَ: اعْتَمَدَ، القُدُم: العُتْقُ، الشارف: الناقة المُسِنَّة، النَّعَم: الإبل.

(٢) المرجع نفسه (٢ / ٥٦٩) أسمرَ: تُرسٌ أسمرُ، مُجْنَأٌ: مُقَبَّبٌ أحدَبُ، أَصَمٌّ: لا خَلَل فيه، الظُّبَة: الحدُّ، يُفلِّلها: يَكْسرها، النِّصال: جمع نَصْل.

(٣) ديوان الهذليين ٢ / ١٣٩ - لا آلُوك، أي: لا أَدَعُ جَهْداً في أمرك، جِلْد أبي عِجْل، أي: جِلْد ثور قد عمل منه ترس، وثيق القبائل، أي: القطع والواحدة قبيلة، الأباء: القَصَب، العميم: ما اعتمَّ من النبت في سوائل المطر، السوائل: الأماكن التي تسيل بالماء، المشَبّ: المُسِنُّ، صَدَّت طَرِيقَه: رَدَّت طريقَه، تصدَّعْنَ: تفرَّقْنَ، الشواكل: جمع شاكلة، وهي الطِّفْطِفَة =

والغزوات وما يتصل بذلك من التَّوَعُّدِ والتهديد، فلا بأس أنْ نذكر شيئاً من ذلك حتى تكتملَ صورتُهم في هذا الميدان.

فهذا عَمرو ذو الكلب يعلنُ لأعدائه أن الصراعَ بينه وبينهم سيكون مريراً لا رحمةَ فيه ولا هوادة، وأن الويلَ فيه للمغلوب، ثم ينذرُهم بأنه لن يرحمَهم إذا ظَفرَ بهم، كما أنه لا يريد منهم رحمةً إذا هم ظفروا به، فليكن الصراعُ بينه وبينهم عنيفاً، وليستمر في غزوهم بأصحابه الصعاليك الشجعان من هُذَيْل، الذين يختلف عددُهم بين الواحد والجماعة، ولم يكتفِ ذو الكلب بذلك، ولكنه توعَّدَهم بأنه لن يكفَّ عن غزوهم حتى يقتلهم، ويرمل نساءهم، يقول:

فإنْ أُثْقِفْتُمُوني فاقْتُلوني ... وإنْ أَثْقَفْ فسَوْفَ تَرَوْنَ بالي
فَأَبْرَحُ غازياً أَهْدي رَعِيلاً ... أَؤُمُّ سوادَ طَوْدٍ ذي نِجَالِ
ويَبْرَحُ واحدٌ واثْنَانِ صَحْبي ... ويوماً في أَضاميمِ الرِّجَالِ
بِفِتْيَانٍ عَمَارِطَ مِنْ هُذَيْلٍ ... هُمُ يَنْفُونَ آنَاسَ الحِلاَلِ
وأَبْرَحُ في طِوالِ الدَّهرِ حتَّى ... أُقيمَ نِساءَ بَجْلَةَ بالنِّعَالِ (١)

أما صَخْر الغَيّ فإنه يتوعَّدُ تأبط شرّاً، أو ابن تُرْنَي كما كان يلقبه، فنراه يصفه بأنه يضمر في قلبه حقداً عليه، لأنه عاجز عنه، ثم ينصحُه بأن يُخَفِّفَ من حدَّة الحقدِ عليه، ثم يحذره من أن يصطدم به، لأنه لو فعل ذلك سيلقى حتفَه لا محالةَ، ونراه يعود فيخفّف قليلاً من حدَّة أسلوبه، فيمزج بين العنف واللين في حديثٍ تظهرُ فيه اللباقةُ والدهاءُ، فنراه يجعلُ وسيلَتَه فيه أن يشير إلى بعض الصفاتِ المحمودة في خصمه، ويسأله ألا يكون سبباً في الإساءة إليه فيقول له: لا تحملني على أنْ أبغيك شرّاً بعد كرامتك عَليّ وبَعْدَ النُّهَى، ولا تحملني على أن أرقعك بالهجاء، يقول:

= التي بين الجَنْب والوَرِك، البَرْز: ما برز من الأرض، اليفاع: ما ارتفع من الأرض، والطِّراف: بيتٌ من أدمٍ أو الخيمة، رست: ثبتت.

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢/ ٥٦٧ - أُثقفتوني: ظَفرتم بي، تَروْن بالي، أي: حالي فيه، قوله: «فأبرحُ غازياً» يريدُ فلا أبرحُ، الرعيل: الجماعة، أؤم: أقصد، النجال: ما يخرج من الأرض، طود: جبل، أضاميم: جماعات، واحدها إضْمامة، العَمارط: الصعاليك، الحلال: جمع حِلَّة والمعنى أنهم يمرون بأصحابها فيهربون من خوفهم، بَجْلَة: قبيلة من بني سُلَيْم.

فـإنَّ ابْنَ تُرنَى إذا جِئْتُكُمْ — أَراهُ يُدافِعُ قَوْلاً عَنِيفَا
قَدَ افْنَى أَنامِلَهُ أَزْمُهُ — فَأَمْسى يَعَضُّ عَلَيَّ الوَظِيفَا
فَلا تَقْعُدَنَّ على زَخَّةٍ — وتُضْمِرَ في القَلْبِ وَجْداً وَخِيفَا
ولا تُقْدِمَنَّ على خُطَّةٍ — تكُونُ إذَنْ لَكَ حَتْفاً ذَفِيفَا
ولا أَبْغِيَنَّكَ بَعْدَ النُّهَى — وبعدَ الكَرامَةِ شَرّاً ظَلِيفَا
ولا أَرْقَعَنَّكَ رَقْعَ الصَّدِيـ — ـعِ لاءَمَ فيه الصَّنَاعُ الكَتِيفَا (١)

أحاديث المراقب:

وكما تحدَّث صعاليكُ هُذَيْل عن مختلف الأسلحة التي كانت معروفةً لديهم، وعن تهديدهم لأعدائهم وتَوعُّدِهم لهم، تحدَّثوا أيضاً عن تربُّصِهم بأعدائهم وترصدهم لضحاياهم، مِن فوق المراقبِ التي كانت فوق المرتفعات العالية من الجبال، فكانوا يشرفون منها على الطريق بحيث يرون الناسَ ولا يرونهم،فكان الصعاليكُ وهم فوق المراقبِ يرتقبون ويتحينون الفرصة المناسبة للهجوم على أعدائهم والإغارة عليهم.

والمرقبةُ التي يتربص فوقها الصعلوكُ دائماً منيعةٌ حصينةٌ،وكثيراً ما تحدَّثوا عن تربُّصِهم فوقَها أثناء الليل المظلم، حتى يكون ذلك أمعنَ في التخفِّي وأدلَّ على جرأتهم وشجاعتهم، ويرسم عَمرو ذو الكلب صورةً لمرقبته في أعالي الجبال حيث يرقب أعداءه، فيصف مرقبَته التي يتربص فوقها بأنها بعيدةٌ واسعةٌ وعاليةٌ ملساء، ويصرح بأنه متربِّصٌ فوق حرفها طولَ يومه يُخْفي شخصَه، حتى إذا حانت الفرصةُ تحدَّر من فوقها وهو ما يزال مُتَخَفِّياً كما يتحدر الماء الزلال الذي يهتدي لَمنحدره، يقول:

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ١/٢٩٩ – ابن ترنى: يعني تأبط شرّاً وقال: الجمحي: وأمه تُرْنَى، وهو شتم يشتمه به، يدافع: يتكلم، الأَزْمُ: العَضُّ، الوَظيفُ: الذراع، الزُّخَّة: الغيظ، الخيفُ: جمع خيفة، حَتفاً ذَفيفاً، أي: القاتل الذي يجهز عليه، يقال: ذَفَّفَ عليه إذا أجهزَ عليه، خُطَّة: قصَّة تكرهها. الظليف: الشديد أو الغليظ، بَعْدَ النُّهَى، أي: بعدَ أنْ كان لك عقل، رَقَعَه: أصلحه بالرقاع كرقَّعه بالتشديد. الصَّدِيع: الإناء يَنْصَدِع فيُرْقَع، الكتيفُ: الضَّبَّات، لاءم: أَلْزَقَ وأَصْلَح.

ومَـرْقَـبَـةٍ يَحـارُ الطَّرْفُ فـيـهـا تُزِلُّ الطيْـرَ مُـشْـرِفَـةِ القَـذَالِ
أَقَــمْتُ بِـرَيْدِهَـا يومــاً طويلاً ولم أُشْـرِفْ بهـا مِـثْـلَ الخَـيـالِ
ولم يَشْـخَصْ بـهـا شَـرفِي ولكنْ دَنَـوْتُ تَـحَـدُّرَ المـاء الزُّلاَلِ
ومـقْـعَـدِ كُـرْبَةٍ قـد كنتُ منهـا مكانَ الإصْـبَـعَـيْنِ مِنَ القِـبَـالِ (١)

ويرسم أبو كبير صورةً لمرقبته التي يذكر أنها مرهوبةٌ، ويصعب أن يُرْقَى إليها، وليس فيها نبات، وأن الرقيبَ فيها ليس بمأمن أو حفظ، وأنها مرقبةٌ طويلةٌ فلا يَرْقَى فيها راقٍ ولا راعٍ، ولا أحد يصل إليها، فليس هناك من أنيس سوى الحمام الأخضر الذي عليه سوادٌ وغبره، والذي لا يأكله أحد، وأن الرجال الأشداء يضعون النَّعامات هناك يستظلون من الشمس والمطر لتحقيق أهدافهم. . . يقول:

وَعَلَوْتُ مُـرْتَبِـئـاً على مَـرْهُوبَةٍ حَصَّـاءَ ليس رَقيبُـهـا في مَـثْـمِلِ
عَـيْطَاءَ مُـعْنِقَـةٍ يكونُ أنيسُـهـا وُرْقَ الحَـمامِ جَـمِـيمُـهـا لـم يُؤْكَلِ
وَضَعَ النَّعـامـاتِ الرجـالُ بِرَيْدِهَا من بين شَـعْـشَـاعٍ وبَيْنِ مُظَلَّلِ
أَخْـرَجْتُ منهـا سِلْقَـةً مَـهْـزُولَةً عَـجْـفـاءَ يَبْـرُقَ نابُهـا كـالمِعْـوَلِ (٢)

وأما أبو خراش فالصورةُ التي يرسمها لمَرْقَبَته أكثر وضوحاً وتفصيلاً، فهي مَرْقَبَةٌ في نتوء مشرفٍ من الجبل كأنه حدّ الفأس، يشرف على طريقٍ ضَيِّقٍ كأنَّه النَّفَق، يتسرب الناسُ فيه بعضُهم في إثر بعض، وأُقِيمَ فوق هذا النتوء عرشٌ ليستظِلَّ المتربصُ تحته ويختفي فيه، ولكن هذا العرش متهدم ولم يبقَ منه إلا عودان أحدهما قائمٌ والآخر ساقطٌ على الأرض، فنراه يقول:

---

(١) المرجع السابق ٢ / ٥٧١ - يحار الطرف فيها: من بُعْدها، القذال: الرأسُ يريدُ رأسَ المَرْقَبَةِ، الرَّيْد: الحرف يَنْدُر من الجبل، من القبال: يعني قبال النعلِ، أي: كنت في وسطها.

(٢) المرجع نفسه ٣ /١٠٧٧ - مُرْتَبِئاً، أي: كنتُ رَبِيئَةَ القومِ، حَصّاء: ليس فيهما نبات، عَيْطاء: طويلةُ العنقُ، مُعْنِقَة: طويلة، النعامات: جَمْعُ نعامة وهي كلُّ بناء على الجبل كالظلة يستظل بها من الشمس والمطر، سِلْقَة: ذئبة، عجفاء: مهزولة، كالمِعْوَل: يريد حديدةَ الناب كأن نابَها طَرَفُ مِعْوَلٍ.

لَسْتُ لِمُـرَّةَ إنْ لَمْ أُوفِ مَـرْقَبَـةً   يَبْدُو لِيَ الحَرْثُ منها والمقاضِيبُ
في ذاتِ رَيْدٍ كَذَلْقِ الفَأْسِ مُشْرِفَةً   طِريقُـهـا سَرِبٌ بالناسِ دُعْبُـوبُ
لم يَبْقَ مِن عَـرْشِـهـا إلا دِعـامَـتُـهـا   جِـذْلانِ مُنْهَـدِمٌ منهـا ومَنْصُـوبُ (١)

ولكن أبا خِراش يختلف عن غيره في أنه لم يكن وحيداً فوق مَرْقَبَتِه،وإنما كان معه رجل آخر هو صاحبه،ونراه يُعنى بصاحبه أكثر من عنايته بنفسه، فهو صاحب حَذِرٌ عزيزُ النَّفْسِ، لم يرضَ لها أن يكون عبداً راعياً،ولكنه آثر أن يكون صعلوكاً عاملاً يتربص سواد الليل فوق المراقب،ويرفض تلك الراحة البغيضة التي ينعم بها الضعفاء الذين لا خير فيهم،لأنهم يؤثرون النوم والدفء على العمل والكفاح والغزو والإغارة، يقول:

بِصـاحبٍ لا تُنَالُ الدَّهْرَ غِـرَّتُهُ   إذا افْـتَلَى الهَـدَفَ القِنَّ المعـازِيبُ
بَعَـثْـتُـهُ بسـوادِ الليلِ يَرْقُـبُني   إذْ آثرَ النومَ والدِّفْءَ المناجِـيبُ (٢)

ويمضي أبو خِراش في وصف صاحبه بالإضافة إلى ما سبق فيذكر أنّه قائم فوقَ هذا المَرقَبَة كأنه السهم، وأنه ليس بكثير اللحم، لدرجة أنه يظهر عصب كفه وساقه، وأنه سَمْحُ النفسِ على الرغم من نحافته وقلة لحمه،يقول:

يَظَلُّ في رأسِـهـا كـأنَّهُ زُلَمٌ   منَ القِـداحِ بِهِ ضَـرْسٌ وتَعْـقِـيبُ
سَمْحٌ من القومِ عُـرْيانٌ أَشَاجِعُهُ   خَفَّ النَّواشِـرُ منه والظَّنَابيبُ
كـأنَّهُ خـالِدٌ في بعَضِ مِـرَّتِه   وبَعْضَ ما يَنْحَلُ القَوْمُ الأكاذيبُ (٣)

---

(١) ديوان الهذليين ٢ / ١٥٩ – أُوف: أُشْرِف، المقاضيب: مواضع القَتِّ، رِيدٌ: حرف ناتئ في الجبل، كَذَلْق الفأس: كَحدّ الفأس، سَرِب: شائع، دُعْبوب مَوْطُوء، عرشها: أن يوضع فوق الدعامة ثُمامٌ أو شيء يُسْتَظَلُّ تحته، جِذْلان: عودان.

(٢) افتلى: عزل، الهدف: الثقيل الوَخْم من الرجال، القِنُّ: الذي أبوه عَبْدٌ وأمّه أمَة، المعازيب الإماء، المناجيب: الضعفاء الذين لا خير فيهم.

(٣) زُلَم: قدح لا ريش عليه، الضرس: تأثيرُ العض، عريان أشاجعه: يعني ليس بكثير اللحم، والأشاجع: أصول الأصابع التي تتصل بعصب ظهر الكف، النواشر: عصب ظهر الكفّ، الظنابيب: جمع ظنبوب، وهو حرف الساق اليابس من القدم وقيل عظم الساق. فهو يشبه هذا بخالد في بعض مِرَّته وفي بعض انفتاله وإقباله.

وحديثنا عن تربُّصهم بأعدائهم فوقَ المراقب، وفي أعالي الجبال يذكرنا بأحاديثهم عن التشرد هنا وهناك، وانتشارهم بين أفناء البادية، وفي أرجاء الصحراء الموحشة، وقد افتخرَ الصعاليكُ باهتدائهم في مجاهل الصحراء المخيفة دون دليل أو بقيامهم بمهمة الدليلِ لجماعةٍ من رفاقهم، كما فعل أبو خراش حين افتخر بأنه يهدي رفاقه في الليالي المظلمة، ونراه قد اتخذ من ذلك مادةً للفخر بنفسه في هذا المجال، يقول:

إذا لَمْ يُنازِعْ جاهلُ القومِ ذا النُّهَى ... وَبَلَّدتِ الأَعْلامُ باللَّيْلِ كالأُكْمِ

تَراهَا صِغاراً يَحْسُرُ الطَّرْفُ دُونَها ... ولو كان طوداً فوقَهُ فِرَقُ العُصْمِ

وإنِّي لأَهْدِي القَوْمَ في لَيْلَةِ الدُّجَى ... وأَرْمِي إذا ما قِيلَ هَلْ مِنْ فتىً يَرْمِي؟ (١)

وقد كان من مظاهرِ تشرُّدِهم وانتشارِهم في الصحراء، أن وردَتْ في أشعارهم أحاديثُ كثيرةٌ عن حيوان الصحراء بأنواعه المختلفة كالذئاب والضباع وحُمُرِ الوحش والثعالب، ثم النَّعام والوعول والظباء والأرانب، ثم الحيَّات وما إلى ذلك من صنوف الحيوان والطير مما وقعت عليه أعينهم أثناء تشردهم وانتشارهم في البادية.

وتحتل الضِّباع جزءاً كبيراً من شعر الأعلم، وهو يصفُها وصفاً دقيقاً، ويصف جراءها وانتفاخ بطونهن، ويشبه جلودها السُّود بثياب الرهبان السود، ثم يشبه آذانها بالمغارف لأنها قصيرة وعريضة، ثم يصور فعلهن بالفريسة، وكيف ينزعن جلدها نزعاً شديداً، كما ينزع الحداد بطائن الجفون البالية، يقول:

وَتَجُرُّ مُجْرِيَةٌ لها لَحْمِي إلى أَجْرٍ حَوَاشِبْ

سُودٍ سَحَالِيلٍ كأنَّ جلودَهُنَّ ثِيابُ راهِبْ

آذانُهُنَّ إذا احْتَضَرْنَ فَرِيسةً مِثْلُ المذانِبْ

يَنْزِعْنَ جلدَ المَرْءِ نَزْعَ القَيْنِ أَخْلاقَ المَذاهِبْ (٢)

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣/١٢٠٣ - بَلَّدَت: لزقت بالأرض، الأعلام: الجبال، ومعنى البيت الأول: استسلم القوم للأدلاء، وترى الجبل بالليل كأنه أكمة فيصغر في عينيك، طوداً: جبلاً فوقه فِرَق الأرْوَى، يحسر الطرف: يكل الطرف، الدجى: الظلمة.

(٢) المرجع السابق ١/٣١٤ - مُجْرِيَة: ضَبُعٌ ذات جراء، وأَجْر: جمع جرو، حواشب: منتفخات البطون، السحاليل: جمع سحْلال إذا كان عظيم البطن، المذانب: المغارف، المذاهب: أخلة السيوف وهي بطائن الجفون المُذْهَبَة، القين: الحداد.

وفي قصيدةٍ أخرى تظهرُ دقتُهُ في وصف الضَّبُعِ، فالضَّبُعُ غليظةٌ لها ثماني جواعر وهي الخروق التي فوق دبرها، ثم ينظر إلى زماعها وهي الشعرات الجافة في مؤخَّر رجلها فيذكر أنَّ لها فوقه وَشْماً كأنه الخلخال، ونراه يبعد في وصفها فيذكر أن هذه الضَّبُع ليست ككلِّ الضباع، وإنما هي عظيمة الرأس، وأن لها في أسفل بطنها جراب كجراب قضيب البعير، يريد أنها خنثى، وذكر ابن حبيب أن المقصود بذلك أن لها ما للذكر والأنثى، يقول:

عَشَنْزَرَةٌ جَواعِرُهَا ثَمَانٍ ... فُوَيْقِ زِمَاعِهَا خَدَمٌ حُجُولُ
تَراهَا الضَّبْعُ أعْظَمَهُنَّ رأَساً ... جُراهِمَةٌ لهَا حِرَةٌ وثِيلُ[1]

ويرسم أبو خِراش في بعض شِعره صورةً صادقةً لوجهٍ من أوجه الصراع الذي يدور في تلك الصحراء المقفرة بين كائناتها الحيَّة، فيصوِّر لنا صراعاً بين صقر وأرنب، فالصقر فوق مرتفع مشرف على الآفاق، وقد رأى على بعد منه أرنباً بين شقوق الأرض، وكيف أنَّه ضمَّ جناحيه وهَوَى إليها، ولكن الأرنب أسرعت[2] لتنجُوَ منه،فيزيد هو من سرعته حتى انقض عليها، وانتظم قلبها، ولا عجب في ذلك فهو صيود لحبّات القلوب، يقول:

ولا أَمْعَرُ السَّاقَيْن ظَلَّ كأنَّهُ ... على مُحْزَئلاَّتِ الإكامِ نَصِيلُ
رأى أَرْنَباًمِن دونها غَوْلُ أَشْرُجٍ ... بعيدٌ عليهِنَّ السَّرابُ يَزُولُ
فضَمَّ جَناحَيْهِ ومن دونِ مايَرَى ... بلادٌ وُحُوشٌ أَمْرُعٌ ومُحُولُ
تُوائِلُ منه بالضَّراءِ كأنَّهَا ... سَفاةٌ لها فوَق التراب زَلِيلُ
يُقَرِّبُه النَّهْضُ النَّجِيحُ لِما يَرَى ... ومنهُ بُدُوٌّ مَرَّةً ومُثُولُ

---

(١) المرجع نفسه ١/ ٣٢٢ – عشنزرة: غليظة مُسنَّة يريد الضَّبُعَ، الخَدَم: واحدها خَدَمَة وهي مثلُ الخَلْخال، لونٌ يخالفُ سائرَ لونِ رِجْلِها، حُجُول: جمع حجل وهو الخلخال، جواعرها ثمان: يريد أن خَلْقَها مُنْتَشِر لأنهما جاعرتان، جُراهمة: مُغْتَلِمة، لها حِرَّة وثيلٌ: يريدُ أنها خُنْثَى.

(٢) الأرنب: للذكر والأنثى، أو للأنثى فقط.

فأهْوَى لها في الجَوِّ فاخْتَلَّ قَلْبَها صَيُودٌ لِحَبّاتِ القُلُوبِ قَتُولُ (١)

إلى غير ذلك من الأحاديث والأشعارِ التي تصوِّر مدى عنايتهم بصنوف حيوان الصحراء وطيرها، ولا شكّ في أنَّ ذلك الوصف الدقيق كان نتيجةً طبعيةً لتشرُّدهم هنا وهناك وانتشارهم بين أفناء البادية.

ولكن ما موقف حركة الصعاليك وأخبارهم بعدَ الإسلام؟

لا شكّ أنَّ حركةَ الصَّعْلَكَة قد ضَعُفَت ضعفاً شديداً بعد الإسلام، حتى ليمكن القول بأنّها كادت أن تختفي تماماً،فعندما أشرقت الجزيرة العربية بنور الإسلام تضاءل نشاطُ الصعاليك تضاؤلاً ملحوظاً،وقَلَّ عددُهم قلّةً ملحوظةً، فقد كان القتل هو آخر شيء في حياة الكثير منهم في الجاهلية، وقَلَّ منهم مَن نجا من القتل حتى أدركَ الإسلامَ كأبي خِراش الذي دخل الإسلام وآمن به وحسن إسلامه وإيمانه.

والسِّرُّ في توقُّفِ حركةِ الصعلكة بعد الإسلام، هو أن العواملَ التي أدَّتْ في الجاهليةِ إلى نشأتهم وانتشارهم، وحملتهم على التمرُّد والثورة، قد ألغاها الإسلام، واستأصَلها من جذورها، وأحاط المجتمعَ بسياجٍ قويٍّ من القوانين التي كَفلَت للناس الحياةَ الكريمة، فقد هَدمَ الإسلام النظامَ القبليَّ الجاهليَّ، وما كان يترتب عليه من الفُرْقَةِ والتناحُرِ بين القبائلِ العربية، ثم ألغَى تعصُّبَ كلِّ قبيلة لأبنائها،وثورَتَها لدفع الأذى والمكروه عنهم، لما يربط بينها وبينهم من أواصرِ القَرابةِ والنَّسبِ.

ولقد أَشَاعَ فيهم فكرةَ الأمة الواحدة،ومن ثَمَّ أصبحت الرابطةُ الدينيةُ لا الرابطة القبلية هي التي تُوَحِّد بين الناس، وكان أوَّلُ ما وضعَه الإسلام لإحْكامِ هذه الرابطة أنْ نَقَل حقَّ الأخذ بالثأر من القبيلة إلى الدولة، وبذلك لم يعدِ الثأرُ - كما كان

---

(١) ديوان الهذليين ٢ / ١٢١ - أمعر الساقين لا ريش عليهما، ويروى أمغر الساقين، والأمغر: الأحمر يريد صقراً، المحزئل: المشرف المرتفع، النصيل: حجر طويل يجعل في البئر، غول، أي: ذات بعد، أشْرُجٌ: شقوق تكون في الحَرَّة -الأرض- بعيدةٌ طوال، يَزول: يتحرك، بلادٌ وحوشٌ، أي: بلاد واسعة تسكنها الوحوش، توائل، أي: تتوارى لتنجو منه، الضَّراء: ما واراك من الشجر، السفاة: الشوكة، زليل: تَمُرّ، يريد أنها من خفتها تَزِلُّ فوق الأرض وتَمُرُّ كأنها شوكة، اخْتَلَّ قلبها، أي: انتظم قلبها.

الشأنُ في الجاهلية - يجرُّ ثاراً في سلسلةٍ لا تنتهي من الحروب والمعارك الدموية، بل أصبحَ عقاباً بالمثل، وأصبح واجباً على القبيلةِ أن تقدِّمَ القاتلَ لأولي الأمرِ حتى يلقى جزاءَه[1].

فكان للدّعوة الإسلامية الأثرُ الأكبرُ في القضاء على حركة الصَّعْلَكَة، فإلى جانب التوحيد بالله، والتسوية بين الناس، مضى الإسلام يُرْسي القواعدَ الاجتماعية العادلةَ لهذه الأمة، بحيث تكون أُمةً مثاليةً يتعاون أفرادُها على وجوه الخير، آمرينَ بالمعروف وناهينَ عن المُنْكَرِ، ويسودُ مجتمعَهم البرُّ والتعاطفُ حتَّى لكأنَّهم أسرة واحدة.

فجعلَ الإسلامُ الزكاةَ ركناً من أركانه، وجعلَ على الدولة أن تأخذَها من الأغنياء، وفرضَ على كلِّ شخصٍ أن يقدِّمَ من ماله سنوياً فرضاً مكتوباً عليه للفقراء والمحتاجين،ويكون توزيعها على المستحقين بالعدل والإنصاف، قال تعالى: ﴿**إنّما الصَّدَقاتُ للفقراءِ والمساكينَ والعاملينَ عليها والمُؤَلَّفة قلوبُهم وفي الرِّقاب والغارمينَ وفي سبيل الله وابنِ السَّبيل فريضةً من الله واللهُ عليمٌ حكيمٌ**﴾ [التوبة :٦٠] كما رَغَّبَ الإسلام الأغنياءَ في الإحسان والبَذْل والإنفاق في سبيل الله،ووعدَهم بأحسن الجزاء وعظيم الثواب، يقول سبحانه: ﴿**مَثَلُ الذينَ يُنفقون أموالَهم في سبيلِ اللهِ كمثلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سنابلَ في كلِّ سُنْبُلَةٍ مائةُ حَبَّةٍ واللهُ يضاعفُ لمن يشاء واللهُ واسعٌ عليمٌ**﴾ [البقرة: ٢٦١]

هذا إلى أنَّ العربَ قد اشتغلوا بالفتوحات ونشرِ الدِّينِ في آفاق الأرض، مما أتاح لهم الفرصةَ وفتحَ الميدان أمامَ الفرسان والصعاليك والذؤبان،وهواة المغامرة والمخاطرة لكي يُثْبتُوا وجودَهم، ويَستَغلُّوا شجاعَتهم وبطولتَهم في مجال مشروعٍ[2] فيفوزوا فيه بالثوابِ العظيمِ وبالغنائم الكثيرة، وقد جعلَ الإسلام لهم حَقّاً معلوماً في الغنائم التي يستولي عليها المسلمون وهم يقاتلون المشركين.

واهتمَّ الإسلامُ بتنظيم العلاقات العامَّة كالميراث،وتنظيم المعاملات كالتجارة والصناعة والزراعة، كما أَوْجَبَ للعملِ أجراً يتقاضاه جزاء عمله، وأصبح لكلِّ مذنبٍ عقوبةٌ على قدر ذنبه،فمَن قَتَلَ فجزاؤُهُ القَتْلُ، وعلى أولى الأمرِ أن يُنْزِلوا به العقابَ

---

(١) العصر الإسلامي د. شوقي ضيف ص١٩.

(٢) الشعراء والصعاليك في العصر الأموي د. حسين عطوان ص١٥.

يقول عز وجل : ﴿ **ولَكُمْ في القصاصِ حياةٌ يا أولي الألبابِ لعلَّكُم تَتْقَون** ﴾[البقرة ١٧٩]. ويقول جل ذكره : ﴿ **يا أيُّها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم القِصاصُ في القَتْلَى الحُرُّ بالحُرِّ والعبدُ بالعَبْدِ والأُنْثَى بالأُنْثَى** ﴾ [البقرة : ١٧٨].

ووضع حداً للسرقة فمن سَرَقَ فله أشدُّ العذاب، يقول سبحانه : ﴿ **والسارقُ والسَّارِقَةُ فاقطعوا أيْدِيَهُما جزاءً بما كسبا نَكَالاً من اللهِ واللهُ عزيزٌ حَكيم** ﴾ [المائدة :٣٨] كما وضع الإسلامُ حداً صارماً لقَطْعِ الطُّرُقِ أو شَهْرِ السلاحِ على الناس واسْتَنَّ لهم عقاباً شديداً، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **إنما جزاءُ الذين يُحاربونَ اللهَ ورسولَه ويَسْعَوْنَ في الأرضِ فساداً أن يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أو تُقَطَّعَ أيْديهم وأرْجُلُهم مِن خلافٍ أو يُنْفَوْا من الأرض ذلكَ لهمُ خِزْيٌ في الدنيا ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيمٌ** ﴾ [المائدة : ٣٣] إلى غير ذلك من القوانين المُحْكَمَةِ التي صانَتِ المجتمعَ، فلا يكاد يكون هناك جانبٌ من جوانب الحياة الاجتماعية إلا وضع فيه الإسلام من التعاليم والقواعد ما يكفل للناسِ حياةً مستقيمةً قوامها العدالة والمساواة.

وهكذا كانت تعاليم الإسلام وقِيَمُهُ وحدوده لخيرِ الأُمةِ وصالحها. فقد طَهَّرَ نفوسَ العرب والمسلمين من الشِّرْك، فإذا هم مؤمنون بالله وحدَه، وسوَّى بينهم فإذا هم أمة واحدة لا فرقَ بين أبنائها إلا بالفضيلة والتقوى، وسَنَّ القوانينَ الاجتماعية التي تيسِّرُ للفقراء الحياةَ الكريمةَ، إذ جعلَ الزكاةَ حقاً واجباً على الأغنياء فإذا الأغنياء والفقراء متراحمون متعاطفون كأنَّهم نفسٌ واحدةٌ،وأقام الحدودَ على المذنبين والآثمين وردَّ عقابَهم للدولة.

وبذلك قضى الإسلامُ على العوامل ـ التي كانت تنشئ الصعلكَة،وتخلق الصعاليكَ في الجاهلية، وتدعوهم إلى التمرُّدِ والثورة ـ قضاء مبرماً شمل كلَّ طبقاتهم، أما الفقراء منهم فأجرى عليهم وعلى أمثالهم من أموال الأغنياء ما ضَمِنَ لهم أسباب المعاش، وأما الخُلَعاء فانتهوا، لأنه لم يَعُدْ مِن حَقِّ القبيلة أن تخلَع ابنها وتطردَه تَخَلُّصاً من شروره وجرائره، فيهيمُ على وجهه، ويحترف الإغارَة والغزَو طلباً للسَّلْبِ والنَّهْبِ وسعياً وراء أسباب الحياة، وإنما أصبح مِن حقِّ الدولة أن تقيمَ الحدَّ عليه، وتُنْزِلَ العقابَ به تأديباً له، وصيانةً للمجتمع من آثامه وجناياته وانحرافاته، أما الأغربةُ

السودُ من أبناء الإماء فقد سوَّى الإسلام بينهم وبين أبناء الحرائرِ ، وجعلَ لهم نفسَ الحقوقِ وعليهم نفس الواجبات[1].

فهذا أبو خراشٍ قد أسلمَ وحَسُنَ إسلامُهُ،وتأثَّرَ بتعاليمِ الإسلامِ، وكَفَّ عن الغارات والغزوات، ومعلومٌ أنه كان في الجاهلية صُعْلُوكاً نشيطاً عاملاً، وكان فارساً من فرسان العرب المعدودين، وقد عُرِفَ عنه سرعةُ العَدْوِ ، حتى كان من العدائين[2] المشهورين، وكانت حياتُه سلسلةً من الغاراتِ والغزوات لفرض ذاته وتحصيلِ قوته، وكانت موضوعات أشعاره صورةً صادقةً عن حياته وممثلَةً لها أصدَقَ تمثيل. وأما حياتُه في الإسلام بعد أن دخلَ في دينِ الله وآمن وحسُنَ إسلامُه، فإنه انقادَ لتعاليمِ الإسلام بحيث ظهرت آثارُه على سلوكه فإذا هو يَكُفُّ عن الغارات والغزوات، وإذا هو لا يثور للأخذ بالثأر،وكأنه لم يكن صعلوكاً قَبْلَ ذلك.

ونستطيع أن نتبيَّنَ ذلك فيما يرويه الأصمعي وأبو العلاء من أنَّ أصحابَ رسول الله ﷺ أخذوا أناساً في يوم حنين أُسَارَى، وكان فيهم زهير بن العَجْوة الهُذلي، فحدَثَ أن مَرَّ به جميل بن معمر بن حبيب الجُمَحيُّ وهو مربوط في الأسرى، وكانت بينهما إحْنَة في الجاهلية، فضربَ عُنُقَه[3]، فرثاه أبو خراش في ذلك اليوم في قصيدة يصفُ فيها ابن عمه بالكرمِ والشجاعة والإباء، ويذكر أن بيتَه كان مأوى للغرباء والضيفان،وأنه كان مأوى للأرامل من النساء اللاتي كُنَّ يذهبن إليه طلباً لمعروفه، ونراه يشيدُ بكرَمِه الواسع حتى يصفَه بأن يديه لا تَحْسِبان شيئاً من ماله، ثم يكشفُ عن مكانته ،ويذكر أنّه كان سيِّداً عندَ قومه، يقول:

فَجَّعَ أَضْيَافِي جَمِيلُ بْنُ مَعْمَرٍ ... بِذِي فَجَرٍ تَأْوِي إِلَيهِ الأَرَامِلُ

طَوِيلِ نِجَادِ البَزِّ لَيسٍ بِجَيْدَرٍ ... إِذا اهْتَزَّ واسْتَرْخَتْ عليه الحَمائلُ

إِلى بَيتِهِ يأْوِي الغَرِيبُ إِذا شَتَا ... ومُهتَلِكٌ بالي الدَّرِيسَيْنِ عَائِلُ

---

(١) كذا في كتاب الشعراء الصعاليك في العصر الأموي د. حسين عطوان ص١٥، والصواب: «لهم الحقوق نفسها، وعليهم الواجبات نفسها».

(٢) الأغاني ٢١/ ٢٣٠.

(٣) المرجع السابق ٢١/ ٢٣٦.

تكادُ يداهُ تُسْلِمانِ رداءَهُ ... مِنَ الجُودِ لمّا اسْتَقْبَلَتْهُ الشَّمائلُ

فما بالُ أَهْلِ الدارِ لم يَتَحَمَّلُوا ... وقد بانَ منها اللَّوْذَعِيُّ الحُلاحِلُ (١)

ويظهر تأثُّر أبي خِراش بتعاليم الإسلام حين نرى أنه لم يتوعَّد القاتلَ بالقَتْل، إلا أنه يوضحُ أنَّ ما فعله جميلُ بن مَعْمَر الجُمَحيُّ لم يكن عن طريق الشجاعة، وذلك لأنه قتَله وهو مُوثَقٌ، ولم ينازله في قتال، بل إنه يقسم أن جميلاً لو نازله لقُتِلَ فعلاً، ثم يشير إلى أن زهيراً كان رفيقاً له في الجاهلية في غاراته في الأيام والليالي، والمقصود بذلك هو التحدث عن شجاعته. فتراه يقول:

فَوَاللهِ لَوْ لاقَيْتَهُ غَيْرَ مُوثَقٍ ... لآبَكَ بالجِزْعِ الضِّباعِ النَّواهِلُ

وإنَّكَ لوْ واجَهْتَهُ إذْ لَقِيتَهُ ... فَنازَلْتَهُ أَوْ كُنْتَ مِمَّنْ يُنازِلُ

لظَلَّ جميلٌ أَسْوأَ الناسِ تَلَّةً ... ولكنَّ قَرْنَ الظَّهْرِ للمرءِ شاغِلُ

ولم أنْسَ أياماً لنا ولَيالياً ... بِحَلْيَةَ إذْ نَلقَى بها مَن نُحاوِلُ (٢)

إلا أنني أشتم من هذه القصيدة رائحةً غيرَ إسلامية، فنراه يصرح أن الإسلام قد جاء وأحاط بالرقاب كالسلاسل، حيث مَنَع من الطلب بالأوتار، وأنه لذلك لا يستطيع أن يعملَ شيئاً، فهو يُشَبِّه قواعد الدِّين الجديد وحدودَه بالسلاسل التي أحاطت بالرقاب، وأنه عاجزٌ عن الفكاك منها والخروج عليها، ويصرح أنه وغيره من الفتاك والصعاليك والفرسان ممن كانوا يتصفون بالحَمِيَّة كأنَّهم اليوم شيوخ محنكون، وأنه قد ذهب عهدُ الفتوَّة وصار الفتى كالكهلِ في تعقله واتزانه، ولذلك لم يغضبْ غضبةً جاهلية، وإنما تجمَّلَ بالصبر وآثرَ العدلَ، يقول:

فليْسَ كَعَهْدِ الدَّارِ يا أُمَّ مالكٍ ... ولكنْ أَحَاطَتْ بالرقابِ السَّلاسِلُ

وعادَ الفَتَى كالكهلِ ليسَ بِقائلٍ ... سوى العدْلِ شيئاً فاستراحَ العَواذِلُ

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣/ ١٢٢١ والأغاني ٢١/ ٢٣٦ - بذي فجر: بذي معروف، نجاد البَزِّ هنا السيف، الجَيْدَر: القيصر، استرخت عليه الحمائل: حمائله طويلة يريد أنه طويل، الدَّرِيسان: الثوبان الخَلَقان، عائل: فقير، اللوذعي: الحديد البيِّن اللسان، الحُلاحِل: الرزين في مجلسه والسيد كذلك.

(٢) النواهل: المُشْتَهيات للأكل، كما تشتهي الإبلُ الماءَ، الجزع: منعطف الوادي.

فأصبحَ إخْوَانُ الصفاءِ كأنما أَهالَ عَلَيْهِمْ جانبَ التُّرْبِ هائلُ (١)

وهو يُصَرِّحُ في مقطوعة أخرى يرثي بها زهيرَ بن العَجْوَة الهُذَليَّ، أنه لم يكن يخاف قريشاً في الجاهلية، وأنه لم يكن يتخاذل عن أخذ ثأره منها إذا اعتدى أبناؤها على قرابته، ونلاحظ أن نفسَه كانت مليئةً غيظاً وحقداً بعد أن أصبحَ عاجزاً عن أن يثأرَ لابن عمه، من قاتله، وهو أحدُ أفراد قريش، أولئك الذين صار الحكم إليهم، وأصبحت الإمارة فيهم، فلولا ذلك ما كان ليخشاهم، ولكن ماذا يفعل غير أن يظل مغيظاً منهم محنقاً عليهم لأنه لا يستطيع أخذَ ثأره فيهم، يقول:

أَفِي كُلِّ مَمْسَى ليلةٍ أنا قَائلٌ من الدَّهْرِ لا تَبْعَدْ قَتيلَ جَميلِ
فما كنتُ أخْشَى أن تَنالَ دماءَنا قُرَيْشٌ ولّما يُقْتَلوا بِقَتيلِ
وأبْرَحُ ما أُمِّرتُمُ ومَلكْتُمُ يَدَ الدهرِ ما لم تُقْتَلُوا بِغَليلِ (٢)

ولعل تأثره بالإسلام كان يزداد مع مرور الزمن، وظهر ذلك واضحاً حين هاجر ابنُه خِراش وغزا مع المسلمين، وأوغل في أرضِ العدو، في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان أبو خِراش في ذلك الوقت شيخاً كبيراً، فقدم إلى المدينة وجلس بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه،وشكا إليه شوقه إلى ابنه خِراش، وأنه رجل قد قُتِلَ إخوتُه وانقرضَ أهلُه، ولم يبقَ له ناصرٌ ولا معينٌ غير ابنه خِراش الذي غزا وتركه(٣)، وتظهرُ اللوعةُ في أبياته لفراق ابنه خِراش، وتراه حين يشكو إلى عُمرَ ويعرضُ مشكلَته يستلهمُ حجتَه من القرآن الكريم، فليس من البرِّ أن يتركَه ابنُه،ويذهبَ للغزو ليفوزَ بالشهادة في سبيل الله، في حين أنه شيخٌ كبيرٌ تقدّم به العمرُ، وضعف حتى إنه لم يجدْ من يعنى به، فالبرُّ أن يقيمَ ابنُه بجانبِه ليرعاه ويقوم على خدمته، يقول:

ألا فاعْلَمْ خِراشُ بأنَّ خَيْرَالـ ـمُهاجِرِ بَعْدَ هِجْرَتِهِ زَهيدُ

---

(١) فاستراح العواذل، أي: لأنهن لا يجدنَ ما يَعْذِلْن فيه سوى العدل، أي: الحق.

(٢) المرجع السابق ٣/١٢٢٩ - الغليل: حَرٌّ في الصدر يكون من الغيظ، ويكون من العطش في غير هذا الموضع، ما أمرتم: إذا كانت الإمارة فيكم، فأبرح بغليلي مالم تُقتَلوا.

(٣) الأغاني ٢١/٢٥٠.

فـإنَّـكَ وابتغـاءَ البِـرِّ بَعْـدي كَمَخْضُوبِ اللَّبَانِ ولا يَصِيدُ[1]

ويرجِّح الدكتور يوسف خليف[2] أنه استوحى معنى البيتين السابقين من قوله تعالى: ﴿**وقَضَى ربُّك ألا تَعبُدوا إلا إيَّاه وبالوالدينِ إحساناً، إمَّا يبلغنَّ عندكَ الكبَر أحدُهما أو كلاهما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُما وقُلْ لَهُما قولاً كريماً، واخْفِضْ لَهُمَا جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَحمةِ وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كما رَبَّياني صغيراً**﴾ [الإسراء ٢٣، ٢٤].

مما جعلَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمر بأن يعودَ خِراشُ إلى أبيه، وألا يغزو مَن كان له أبٌ شيخٌ إلا بعد أن يأذنَ له[3].

والحقُّ أنَّ روحَ الإسلام تتجلى واضحة وضوحاً تاماً في حديثه مع ابنه ضمن هذه الأبيات، ويظهرُ فيها تأثره بالإسلام تأثراً لا يقبل الشكَّ والارتياب.

وهكذا نرى أن أبا خِراش تحول عن الصعلكة تحولاً عميقاً حالَ بينه وبين ذكر الغاراتِ والغزواتِ والتحدُّث عنهما في أشعاره،واتضح كذلك أنه آمن بالدِّينِ الحنيف،واستجاب لتعاليمه،وأنه كَفَّ عن الحميَّة الجاهلية وما يتبعها من الغضبِ والثورة ونحو ذلك، فكان يتجمَّلُ بالصبرِ ويتمسك بالحقِّ، ومع ذلك نرى في بعض شعرِه تموجاً مع ذكرياتِ العهدِ الماضي في الجاهليةِ، وما كان فيه مِن الصَّعْلَكَةِ، وإنْ كان أمراً غير مقصود.

والطريفُ من ذلك أنه بعدَ أن أسلمَ وحَسُنَ إسلامه، وبعد أن عاشَ في الإسلام فترةً طويلة امتدت به حتى خلافة عمرَ بن الخطاب، نراه يحزن حزناً شديداً عَلَى ساقه التي نَهشتْها حَيَّةٌ، وقد ماتَ بسبب ذلك في قصةٍ مشهورة[4] حيث نراه في هذا الموقف الرهيب بين الحياةِ والموت لا يأسفُ على شيءٍ كما يأسف على ساقه التي طالما أسعفَتْه في حياته، وكان لها عليه فضل أي فضل، يقول:

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣/١٢٤٣ - زهيد: قليل، أي: إذا هاجر وذهب فإن خيره قليل.

(٢) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ص٢٥٨.

(٣) الأغاني ٢١/٢٥١.

(٤) المرجع السابق ٢١/٢٥٢.

لَعَمْرُكَ والمَنايا غالِباتٌ … على الإنسانِ تَطْلُعُ كُلَّ نَجْدِ
لقد أَهْلَكْتِ حيَّةَ بطْنِ أنفٍ … على الأصحابِ ساقاً ذاتَ فَقْدِ (١)

وقال أيضاً:

لقد أَهْلَكْتِ حَيَّةَ بَطْنِ أَنْف … على الأصْحَابِ ساقاً ذاتَ فَضْلِ
فما تَركَتْ عَدُوّاً بيْنَ بُصْرَى … إلى صنعاءَ يَطْلُبُهُ بِذَحْلِ (٢)

---

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣/١٢٤٤ والأغاني ٢١/٢٥٢.

(٣) الأغاني ٢١/٢٥٢ - بطن أنف: موضع من مواضع هُذَيل، وذات فقد، أي: فقدها يشق على الأصحاب، ويعظم عليهم وذلك لما وهبه الله من سرعَةِ عَدْوِه بها.